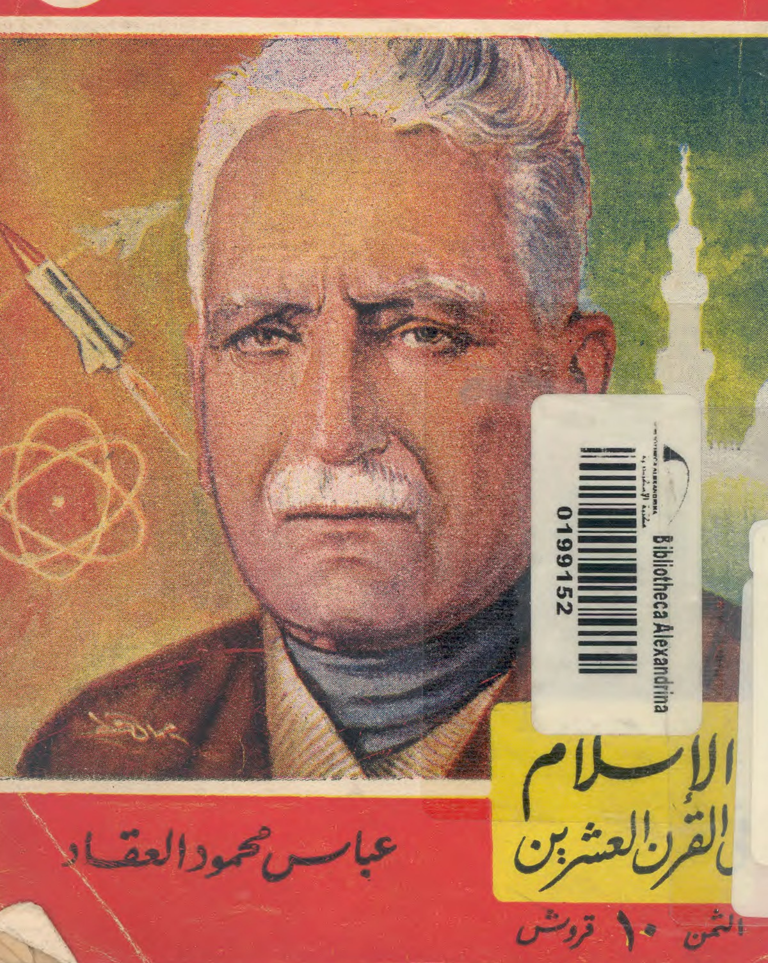
كتاب الهلال



عباس محمود العقاد

الثمن ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٠٨ ــ رمضان ١٣٧٩ ــ مارس ١٩٦٠

No. 108 — March 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٢/١ ٥ دولارات ــ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الإسلام فى القرن العشرين

حاضره ومستقبله

بقلم
عباس محمود العقاد

مقدمة

كان التقليد التاريخى فى القرن السادس للميلاد ان تتقاسم العالم المعمور دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن الا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة من الجند والسلاح أعظم من القوة التى جردتها عليها فى حروبها الاولى

وكانت الدولتان المتنافستان فى ذلك القرن دولة المشرق وهى دولة الاكاسرة ، ودولة المغرب وهى دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ، ولا ثالثة لهما فى العالم المعمور بين القارات الثلاث

جهدت كل من هاتين الدولتين الا تدع بقعة من البقاع المعمورة فى القارات الثلاث بعيدة من سلطانها أو قادرة على عصيانها

وكانت بينهما صحراء جرداء تحفل الدولتان بما حولها ولا تكترثان لما يجرى فى داخلها ، وامتد سلطان كل منهما الى الجانب الذى يليه فاتخذت فيه اتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتهم أن تنصب لها اميرا على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله فى الجزيرة العربية . ثم لايعنيها الامر عناية جد تنتهى فيه الى عمل فاصل تجاوز به التردد والشروع ، فليس الامر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار

اما الخطر الذى فرغت له كلتا الدولتين فهو الخطر من احداهما على الاخرى ، والخطر من قبل النهرين فى العراق ومن قبل النهر الكبير فى وادى النيل . فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلاً من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين، ولم تزل الحرب بينهما سجالا فى هذه الاودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على أمان من قبل الجزيرة الجرداء

نعم كان جيش من الفرس قد انهزم فى وقعة ذى قار على طرف من اطراف تلك الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس فى ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرنا لها من دولة اخرى جديرة بالخوف منها وحفز الهمم للتغلب عليها ، ومثلها فى عصورنا الحديثة كمثل الهزائم التى اصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون منها يقولون ان الشمس لا تغيب عن أملاكها : هزائم تارة فى حدود الافغان أو عند اعالى النيل أو على طرف القارة السوداء فى الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبة على كرة الارض بين مشارقها ومغاربها

وكذلك كانت فارس بعد وقعة ذى قار ، فلم تتبع هزيمتها بحذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدها من الحذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بيزنطة واتباعها فى أودية الانهار أو بين ارجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هى ولا صاحبتها بيزنطة أن ثمة خطرا عليهما قط متوقعا من جهة الجنوب

فلما جاء كسرى رسول من قبل هذا الجنوب وسأل عن شأن هذا الرسول فقيل انه نبى فى العرب يدعوه الى دينه . . . ضحك غاضبا أو غضب ضاحكا وامر من يذهب الى ذلك النبى الجسور فيأتيه به حيا أو ميتا . . ليلقى جزاءه على هذه الجسارة التى اجترأ بها على الشاهنشاه ملك الملوك

ولما تسامع القوم فى الجزيرة العربية ان ذلك النبى يهم أن يحارب القيصر فى عقر داره سخروا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، بعد ثلاثة عشر قرنا من القرن السادس الذى استعظموا فيه ما استعظموا من جراة النبى العربى على عروش الاكاسرة والقياصرة ، فكان من المؤرخين المحدثين من كتب تاريخ الوقائع التى دارت بين أتباع ذلك النبى وبين جبابرة الفرس والروم ، ومن كتب فى تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة أمام أولئك الاتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبى الى كسرى وقيصر رواه وهو يتعجب ويقول شبيها لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة : عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر فى مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء الرمال والبحار !

قوة غالبة

وقوة صامدة

قوة غالبة !

ان اعجب العجائب لما ينقضى على وقوعه مئات السنين ثم يتعاظم من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه

وكان ماجرى للدولتين ـ الفرس والروم ـ يومئذ اعجب العجائب فى تواريخ الدول من قديم وحديث . فقد هزمت الدولتان معا فى بضع سنوات ، ولم يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره احداهما او كلتاهما ، بل جاء من المكان الذى هان شأنه حتى لم يحسب له حساب

جاءت القوة التى هزمت الدولتين فى وقت واحد من وراء الرمال أو قل من وراء المجهول او من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق فيما تقول

قوة غالبة لم تصمد لها قوة

قوة نجمت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هى تلك القوة ؟ وليست هى قوة دولة ولا قوة سلاح .. !

قيل فيما قيل انها خشونة البادية غلبت ترف الحضـارة ونعمة الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معا قد كانتا تحكمان الملايين ممن لا يعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من حولها قبائل لم تعرف غير الجبال والقتال ، وكانت بيزنطة تحكم على تخومها أشباه تلك القبائل فى خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها وتهزمها كلما أغارت عليها من غربها أو شمالها ، بعد أن تلاحقت هزائمها فى وقائعها مع ابناء

انبادية العربية ، وسلمت بالهزيمة بعد الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار

وقيل فيما قيل انه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم عند من ينطقون بالضاد

ولكنه سلاح كان ينبغى أن يصدق من الجانبين ، وان يغلب به العجم فى بعض ميادينهم ان لم يغلبوا به فى الميادين كافة حيثما التقى الخصمان المتساويان فى ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا أشد احتقارا للعربى فى تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث فى احدى وقعات العراق أن زعيما عربيا ممن يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لان العرب أعلم بقتال العرب ، فغضب جنود مهران لانهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربى : « صدقت . لانتم أعلم بقتال العرب وانتم مثلنا فى قتال العجم » وثاروا به يستعظمون ان يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى قال لهم : « دعونى . فانى لم ارد الا ماهو خير لكم وشر لهم .. فان كانت لهم على خالد فهى لكم ، وان كانت الاخرى لم يبلغكم أعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء »

الا ان هذا « الاحتقار » سلاح موفور فى المعسكرين ، فان كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عنـــد العجم منه فهو نصيب غير صغير

على أن العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعا من أبناء البادية ولا من الناشئين على الشظف والشدة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثراء ، وكان قائدهم الاكبر ــ خالد بن الوليد الذى قال الزعيم العربى لقائد الفرس مهران انه أعلم بقتاله ــ مخزوميا من أغنى السروات فى بنى مخزوم ذوى الجاه العريض والثراء المستفيض ، اذ كان جده ــ كما

ذكرنا فى سيرته ــ المغيرة بن عبد الله الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرة تشرفا بالانتساب الى الفرع الذى أناف على الاصول ، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لانه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى،وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار،وبوفاته ارخت قريش كما تؤرخ بالاحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الاربعة الذين اخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الاسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية . أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات ، فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين . ولقب ابو امية زاد الراكب لانه كان يكفى أصحابه فى السفر مئونتهم فلا يتزودون بزاد . . . ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع انسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص . فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الاقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى مابعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لابى العباس السفاح : « أن المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين . . . »

فاذا كان المقصود بترف الروم والفرس ترف الطبقة التى يخرج منها القادة والسادة فليس فى قادتهم من أحاطت به نعمة الثراء كما أحاطت بقائد المسلمين الاكبر فى حربهم للدولتين ، وهو الذى سماه صاحب الدعوة الاسلامية بسيف الاسلام

ولا ننسى أن الجيوش الاسلامية لم تصل الى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدربت على القتال مثل دربتها وعرفت من الترف والخشونة مثل ما عرفته فى بداوتها وحضارتها

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس فى صفوف المنتصرين مع أمراء الاسلام . ففى القرن الثانى عشر للميلاد كان السلطان محمد غورى الافغانى يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التى اشتهرت بالشجاعة والفروسية فى العالم القديم من أقصى الديار الاسيوية الى أقصاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوى » الذى قيل عنه انه لم يعرف الهزيمة قط فى منازلة قرين ، فانتصر الجيش الافغانى بمن فيه من الافغانيين والاتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، وأوشك الامير الغورى أن يقع فى احدى معاركها اسيرا مثخنا بالجراح فى قبضة عدوه العنيد

وتكررت الظاهرة فى المغرب حيث كان المنهزمون من قبائل البربر التى لم تعرف فى تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها فى مواطن شتى دليلا على أن القوة التى انتصر بها دعاة الاسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن العجم على العرب ، ولا حاجة الى قول قائل انها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح

فلا مناص اذن من الرجوع بها الى السبب الذى اتفق عليه

المؤرخون او كادوا بعد التعلل لها بجميع الاسباب

لا مناص اذن من الرجوع بها الى العقيدة التى حفزت أولئك المجاهدين على اختلاف الاقوام والازمان

غير أن الرجوع بها الى العقيدة لايختم المطاف ولا يغنى عن مزية فى هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التى سبقتها او لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كهذه الظاهرة بعد تجريدها من العوامل الاخرى

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلوا من عقيدة يؤمنون بها ويقبلون على الموت فى سبيلها ، وما كانت قبائل الهند او آسيا الوسطى تجهل الدين او تهمله فى معيشتها اليومية فضلا عن المراسم التى تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه مدى الحياة

أيقال انها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الاسلام على سائر العقائد فى ذلك التنازع بين الدول والاديان ؟

ان دفعة الدين الجديد ولاشك سبب لايهمل فى هذا المقام ، وقد يسبق الى الخاطر لتفسير قوة الدعوة فى القرن السابع للميلاد وفى القرن الثانى عشر يوم كان القائمون بالدعوة فى آسيا الوسطى اقواما من الافغان والترك دخلوا حديثا فى الدين

لكن كم من عقيدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت فى تواريخ الدول والاديان ؟



وقوة صامدة !

ان العقيدة الاسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب فى ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولابد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة . فان القوة التى تصمد كالقوة التى تغلب فى حاجتهما الى التفسير ، أو لعل القوة التى تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لانها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة فى معترك الصدام والصراع

وصمود القوة الاسلامية فى أحوال الضعف عجيب كانتصارها فى أحوال الشدة والسطوة ، ولاسيما الصمود بعد اكثر من عشرة قرون

ولقد تداولت الدول بقاع الارض من القرن السابع للميلاد الى العشرين : قامت دول اسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الاديان الاخرى ، وحدث فى فترة من الزمن خروج المسلمين من أوربا الغربية ودخولهم الى أوربا الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وقامت دولة الآستانة أو اسلامبول ، ثم ظلت هذه الدولة وحدها كفؤا للدول الاوربية مجتمعات أو متفرقات حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين فى ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الاسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمكن منها

المستعمرون فلم تبق منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال ، ومن كان منها مستقلا كالدولة العثمانية او الدولة الايرانية أو الدولة الحسينية بالمغرب الاقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها أشد واقسى من افتياتهم على البلاد التى فقدت حريتها واستقلالها ، وانقضى القرن التاسع عشر كله والامم الاسلامية مخذولة متخاذلة والدول المستعمرة غالبة متحكمة ، وخيل الى الناظرين ان الحاضر والمستقبل جميعا للاستعمار ، وانه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة واصبحوا فى كل منها عالة على المستعمرين

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف راى الناس منتهاه ؟

الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح

والاسلام تبرز له دولتان فى آسيا عداد المسلمين فى كل منهما يزيد على سبعين مليونا ، وهما دولتا اندونيسية والباكستان . وسائر الدول فى آسيا وافريقية تقترب من الحرية وتبتعد من ربقة العبودية ، وهذه هى قوة الصمود بعد اربعة عشر قرنا من الدعوة المحمدية ، لا ينظر المؤرخ فى أطوارها على تعدد ظواهرها وادوارها الا وجب عليه أن يفترض لها سرا عجيبا كذلك السر العجيب فى صدر الاسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتى العالم فى مدى خمس سنوات

ان قوة الصمود هنا لعجيبة كقوة الغلبة هناك ، ولعلها — كما قدمنا — اعجب من قوة الغلبة ، لانها تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع

وندع الصراع فى مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمة ، فان قوة العقيدة الاسلامية

قد سرت مسراها فى أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفى افريقية اليوم مائة مليون مسلم لا شأن فى اسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون فى السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه فى الباكستان ، وقد يكون فى الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين

وهؤلاء جميعا سرت فيهم عقيدة الاسلام بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان للدول والسياسات شأن فى اسلامهم من بعيد متقطع غير موصول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الامر فيه لايكفى لاسلام عدة من الناس تحسب بالالوف والمئات ، ولا ترتفع الى عشرات الملايين فضلا عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد المجاهدين فى سبيل اسلامهم بعد الرءوس التى سقطت فى ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلا فى كفة الميزان الاخرى لمئات الالوف

هذه القوة ، غالبة وصامدة ، تتطلب تفسيرا غير كلمة العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية تهيأت لها ولم تتهيأ للعقائد الاخرى التى لم يعرف عنها مثل هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون فى انتشار الاسلام من اصدقائه واعدائه على السواء ، فذهبوا جميعا يلتمسون الدواعى التى يسرت لهذه الدعوة مالم يتيسر لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفون فى بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف الرغبة فى الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجأون الى المزايا التى تعينهم على الاعتذار كلما وضح عجزهم عن تحويل المسلمين من دينهم أو وضح عجزهم عن مجاراة الدعاة الاسلاميين فى نشر دينهم بغير مشقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب

والتنظيم

فمن أسباب انتشار الاسلام في القارة الافريقية — عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين — أنه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الافريقى وطلاق زوجاته أو الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء

ومن أسباب انتشاره عند الباحثين فى سرعة الاقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والاشراف ، فاقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المكانة الاجتماعية مالم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات

ومن هذه الاسباب عند الباحثين فى سرعة انتشاره بين الاندلسيين أنه صادف ثمة شعبا فقيرا ساءت ظنونه بساداته من رجال الدنيا والدين وانكروا من أولئك السادات الدنيويين والدينيين تعاليا عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وابهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا فى ملتهم لانها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد

ومن هذه الاسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والاصول لا يحوج المتدين به بعد الايمان بالوحدانية وفرائض العبادة الى شيء من الغوامض والمراسم التى يدين بها اتباع العقائد الاخرى ولا يفقهون ما فحواها !

وهذه كلها — على أصح ما تكون — أسباب محلية او أسباب موقوفة تصلح لتعليل انتشار الدين فى بيئة معينة او فى زمن معين ، ولكنها لا تلازم انتشاره فى جميع البيئات والازمان ، ومشكوك مع هذا فى صدق تعليل بعضها فى البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل شيوع الاسلام بين الافريقيين وقلة اقبالهم على العقائد التى تحرم تعدد الزوجات

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه كل من

أراده بين أولئك الافريقيين ، ومن كان منهم قادرا على تعديد زوجاته وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كائنا ماكان اعتقاده أو كائنا ما كان دينه بين الاديان الكتابية ، وسائر القوم من غير ذوى القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من زوجة ، وقلما يوجد فى بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ، وقد أجمع الرحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل افريقية الوسطى ، فلا يتأهل الشاب للبناء بالزوجة الواحدة الا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رءوس الماشية والانعام، ومن المستغرب حقا أن يتخيل المرء افريقيا يدخل فى الدين ثم يخرج منه لانه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التى ارتبط بها بعقد من العقود على أيدى رجال الدين ، وأغرب من ذلك أن نتخيل الافريقى الاعزب منتظرا متسائلا لا يدخل فى الدين حتى يتبين مايبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج

وأيا كان اثر العلاقات الزوجية فى انتشار الاسلام بين الافريقيين فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن فى منافسة الاديان الاخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فان تحريم تعدد الزوجات لم يرد فى كتاب من كتب العهد القديم أو كتب العهد الجديد ، وكل ماورد فى الانجيل أن القس ينبغى الا يزيد على زوجة واحدة ان لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان فى القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كلهن بقيد الحياة غير من فى القصر من السرارى والزوجات « غير الشرعيات » ... واعترف قبل مماته بعشرة من ابناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا له من زوجاته دسدراتا وهوجارد وفستزادا (١) وعدا الابناء الذين

---

(1) Desiderata, Hildegarde, Fastrada

ولدوا له ولم يعترف بهم لانهم كانوا على غير ما يحب من سمات الامراء

ومن الاوهام الشائعة كما قلنا فى كتابنا عن الفلسفة القرآنية « ان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الاديان الكتابية ... » لان الواقع الذى تدل عليه كتب الاسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الاديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعا عند أنبياء بنى اسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى وستر مارك Westermarck العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الانسانية « أن الكنيسة والدولة معا كانتا تقران تعدد الزوجات الى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لاتعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الاسر الكبيرة ، وكل ما حدث فى القرن الاول للمسيحية ان الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين ان يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك ان يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التى ذهبت الى استحسان الزواج الموحد هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فان لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة اهون شرا من امرأتين ، وكانت المرأة على الاطلاق شرا محضا وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها ان تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك واوشكوا ان يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده ... »

ومن الواضح أن هذه المسألة بذاتها ــ مسألة الزواج والمرأة ــ لم تكن من المسائل التى تسبق الدخول فى دين من الاديان ، ومامن أحد فى افريقية وفى سائر القارات راى المسلمين منفردين باباحة الجمع بين النساء فى البيت الواحد ، وما من

وثنى على الفطرة اباح له الاسلام كل ماكان يستبيحه من الشهوات على دين آبائه ، وأولها المسكرات التى تفشو بين البدائيين ويضيقون بمنعها أشد من ضيقهم بمنع تعدد الزوجات ، وما من عقبة قامت فى وجه المسيحية بين الشرقيين أو الغربيين لانها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر الى المرأة نظرتها الى شيطان أو حبالة شيطان . فاذا آمن المرء بفساد عقيدة آبائه واجداده فلا مناص له من قبول الدين الذى كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الاوامر لانه يعصيها أو النواهى لانه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصى والذنوب ويرتقى فى الدين فوق مرتقاه

ولو كان الاقناع المنطقى يكفى وحده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال أن الاسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين فى الهند لانه يرفع عنهم لعنة المذلة والحرمان . فهم خلقاء أن يوازنوا بين منزلتهم فى دين آبائهم واجدادهم ومنزلتهم فى الدين الاسلامى فيختاروا افضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا افواجا فى الدين الجديد

غير أن الاقناع المنطقى لايكفى وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بأطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الاقناع المنطقى يكفى المؤرخ فى تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية اذا اعتمد عليه فى كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعا معتمدين عليه فى اعمالهم منقادين له فى أحاسيسهم ودخائل وجدانهم . فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث الى الاسباب الثابتة والعوامل المقنعة ، وليس من المنطق الصحيح أن نتخيل الناس جميعا منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين فى تمييز الحق والباطل من الدواعى والاسباب

والواقع فى أمر المنبوذين الهنديين ، وفى أمر المحـرومين جميعا ، أنهم لم يكونوا اضعف ايمانا بعقيدتهم البرهمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول الى الاديان الاخرى كان بينهم أكثر واسرع مما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجـد فيهم من يصبر على قسمته لانه يعتقد انهـا شرط من شروط الخلاص الابدى وكفارة عن المساوىء التى سلفت منه فى أدوار الخلق الاولى ، وربما كان من المحرومين فى كل امة من هو اثبت ايمانا على دينه من ذوى النعمة والثراء، لان جانب الوعد والامل قوى فى الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والامل اوفر من نصيب القانع المجدود

وقد حدث حقا أن اناسا من المنبوذين رحبوا بالدين الاسلامى ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم اليه ولحسن ماعاينوه من القدوة الصالحة فى سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل مايفهم منه ان الهنود الذين اسلموا كانوا جميعـا من طوائف المنبوذين ، بل لانجد فى تلك الاسانيد مايفهم منه أن الاكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من طبقات العلية وذوى الوجاهة فى المجتمع او فى الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود الى الاسلام فى بقاع الهند الغربية من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لايوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة الى الاسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون ، وتكاد الروايات المحفوظة عن اخبار الاسلام فى الجزر الجاوية ان تجمع على ابتداء الاسلام بين الامراء والقادة ثم شيوعه بأمرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هى القاعدة المطردة فى معظم الامم الاسيوية من سكان الجزر الى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان فى صـباه ببعض الاديان الـكتابية كمـا حدث فى اسـلام

« تكودار خان » احد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو الذى نقل لنا القلقشندى فى صبح الاعشى كتابا منه الى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه :

« ... ان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه افضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام .. »

وقد أسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الاثيوبية ، فلم ينحصر اقبال الاسيويين والافريقيين على الاسلام فى طبقة واحدة من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العلية الى من دونها كما ابتدأ من الاتباع الى السادة والرؤساء

ومهما يكن من اثر الاسباب المحلية أو الموقوتة فلابد من البحث عن سبب عام محيط بجميع هذه الاسباب التى تختلف فيها بيئة عن بيئة وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولابد من عامل واحد غير هذه العوامل التى تحبب الاسلام تارة الى الحاكم وتارة الى المحكوم وتفتح له السرائر فى نفوس الضعفاء وفى نفوس الاقوياء ، وتجعله قوة تعين الغالبين على الغلب وتعين المغلوبين على الصمود والدفاع ، ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فان حقيقته التى تتضح من احاطته بهذه العوامل كافة انه عقيدة شاملة ، وانه بذلك حقق الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على اتم شروطها ، فما كانت سريرة الانسان لتطمئن كل الاطمئنان الى اعتقاد يفرقها بددا ويقسمها على نفسها ويترك منها جزءا لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج من سلطانه فيملكه سواه

قلنا فى ختام كتابنا عن عقائد المفكرين انه « لا التباس اليوم

بين وازع الاخلاق ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقهما فى الاباحة والتحريم احيانا بالذى يمنع الباحث أن يعرف لهــا صبغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين اوامر القانون وأوامر الاخلاق وأوامر الدين

« والغالب على الاوامر القانونية انها ارادية تكتفى بتحقيق السلامة ولا تذهب وراء الاسلم الالزم الى شوط بعيد ، والغالب على الاوامر الاخلاقية انها لدنية تعمل فيها الارادة شيئا ولكنها لا تعمل كل شىء ، بل يتولى الشعور اهم البواعث فى اعمال الاخلاق ، ويشاهد فيها كثيرا نزوع الى ماوراء السلامة واللزوم وتفضيل للأجمل الامثل من الامور ، فصاحب الوازع الاخلاقى لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعا الى درجة اعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود

« اما الغالب على الاوامر الدينية او آداب العقيــدة فهو الشمول الذى يحيط بالارادة والشعور والظــاهر والباطن ولا يسمح لجانب من النفس ان يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال الا ان تكون معهما الثقة التى لا تتزعزع فى صميم الحياة ، بل فى صميم الوجود ، ومن السهل أن يقال ان حاسة القانون تتولد فى الانسان لانه عضــو فى مجتمع وان حاسة الاخلاق تتولد فيه لانه فرد من افراد النوع الانسانى كله ، ولكن ليس من السهل ان يقال ان الانسان مهتم بمصيره فى الكون لانه عضو فى المجتمع أو فرد من أفراد النوع . . . وانما يتدين الانســان لانه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له قرارا أوسع جدا من علاقاته الانسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب ان يطلب عقيــدة تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها ويريدها كما يشاء »

وعلى هذا الشرط ــ شرط الشمول فى العقيدة ــ يكون الاسلام هو العقيدة بين العقائد ، أو هو العقيدة المثلى للانسان

منفردا ومجتمعا ، وعاملا لروحه أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه أو ناظرا الى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لانه روح تنكر الجسد أو لانه جسد ينكر الروح أو لانه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، رهينا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع

ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق



عقيدة شاملة

يبدر الى الذهن أن الشمول الذى امتــازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولابد لاظهــارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الـكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لاول وهلة قبل أن يطلع على حقــائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع

ومن المحقق ان ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات ، وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المســلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيــكل والصنم والايقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للكاهن ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة

لقد ظهر الاســلام فى ابان دولة الكهانة والمراسم ، وواجه أناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحــالة الوثنية فى تعظيم الصــور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر

العبادة ، ولاح للناس في القرن السابع للميلاد خاصة أن «المتدين» قطعة من المعبد لاتتم على انفرادها ولاتحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه ، فالدين كله في المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولاتزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والإيقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب الى مابعد القرن السابع بأجيال متطاولة

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة احد من الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليستتم من أحد بركة او نعمة يضفيها عليه ، ولكنه يذهب اليه كما يذهب الالوف من اخوانه ، ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لاحد منهم عليه

فاذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وأن هذه الرسالة ليست من مناسك الدين ، وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى . . »

وقرأ فيه : « فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ »

وقرأ فيه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

وقرأ فيه : « وما أنت عليهم بجبار »

وقرأ فيه : « لست عليهم بمسيطر »

وقرأ فيه : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »

وقرأ فيه آيات لاتخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات

□

مر بنا أن فساد رجال الدين كان من اسباب انصراف اتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين

مثل هذا لا يحصل فى امة اسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فانني لا أومن به لانني لا أومن بك ولا أرى فى سيرتك مصدقا لاوامرك ونواهيك أو اوامره ونواهيه

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم إنه صاحب الدين وانه حين يؤمن بالله يؤمن به لانه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواما لروحه

« ... والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يا ايها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد »

نعم . كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الارض وتحت السماء

ان عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان اماما له فى مسجده فلن ترتفع

به الامامة مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذى لايعرف لاحد حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا »

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ـ فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذى لاتستريح اليه السريرة الا حين تضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه

ومن هنـــا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر . لان الامر فى الاســـلام كله لله « بل لله الامر جميعا » . . « ولله المشرق والمغرب » . . « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لامر الله . وهذا

التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الامم الاسلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام

ان هذا الشأن العظيم ــ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » ــ لايتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد فى خلوته لايعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحــد مالم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن اربعون مليونا أو خمسون بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها الا القليل الذى لايزيد فى بداءته على عشرات الالوف

⊏⊐

وينبغى ان نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح . فان الاعتراف بحقــوق الجسد لا يستلزم انــكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ماكانت له حياة ناطقة ومالم تكن له حياة « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وأشار الى هذه الاشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وانه نور السموات والارض وانه « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم »

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل مايستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الاديان طرق للتصوف تبلغ مابلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية او بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فان انكار الجسد فى البرهمية او البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير او الوجدان ، وفى حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وان التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الايمان : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ... « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ... وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا

وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب » ... « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله » ... « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »

ومن عقائد دينه ايضا « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » .. « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم »

وليس فى الاسلام أن الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته ، ولا انه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الإيمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك أنه كان حافزهم الاول فى صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الامر ان المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وأن ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة ان الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر انها قوة للقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولايقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين ابى الطيب المتنبى وابى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

والمعرى يقول ان التعب عبث لانه لا يؤدى بعده الى راحة فى الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد

تعب كلها الحياة فما اعجب الا من راغب فى ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين ويقال تارة أخرى أنها ضرتهم واوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول انهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول لانها تشمل الامم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بني الانسان من كل جنس وملة وقبيل : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ... « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض » .. « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .. « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون »

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم

لانها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير »

وفى احاديث النبى عليه السلام أنه « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالاخلاق

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات »

***

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم »

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »

***

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »

***

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه أهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين

***

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفواانحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم . بل كنتم مجرمين »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون

وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون »

***

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لأقوى من العصبة الاشداء

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين »

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء أو اله اقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه يكون مع الله ، والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون اقوياء الارض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقــادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضا والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها في أول نشأتها امما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شيء ، ولم يحدث قط فى أمة من الامم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت أليه الشعوب فيما بين النهرين وفى ارض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه اناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه اناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية اكثر من مائتى

سنة . ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الاقوام والاوطان ، ويحقق المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الاخلاق وآداب الاجتماع

وابراز هذه المزية ـ مزية العقيدة الاسـلامية التى اعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود ـ هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للاقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل من حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول . ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية فى جملتها وللعالم الانسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول اكرم مايكون مع هـذه القوة وهذا الشمول



الإسلام والمسلمون

في القرن التاسع عشر

١ ــ الاسلام

انتهى الاسلام فى اوائل القرن التاسع عشر للميلاد الى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية . لانه تلقى عن القرون الاربعة السابقة اثقالا من المتاعب والادواء لم تمتحن أمة من قبله بمثلهــا ، وكان بعضها كافيا للقضـــاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافيا للقضاء على دول الفراعنة والاكاسرة فى الزمن القديم ، وان فى هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقا يبدو لنا فى كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فان دول السياسة تذهب ولاتعود ولا يوجد بعدها من يحاول اعادتها ، ولكن دولة الدين ــ أو على الاصح قوة الدين ــ تبقى من وراء الامم والحكومات كأنها القوام الذى تتعاقب عليه بنية فى اثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الاسلام بعد ماتلقاه من الضربات منذ القرن العاشر الى القرن التاسع عشر للميلاد ، وانما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة انسانية » هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الامم ولاتزال على امل وثيق فى المزيد

ونستطيع أن نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التى صابرتها وصبرت عليها

وهى محيطة بها من خارجها وناجمة فيها من داخلها وبين ظهرانيها

فقد مضت القرون الاربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر فى منازلة الجيوش الصليبية ، ولم تكد هذه الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى التى وقفت فيها الدولة العثمانية — وكانت يومئذ دولة الخلافة — تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الاوربية التى تألبت عليها وأطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لانها ... كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة

ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة » على بقية الميراث حتى أعقبتها حملات الشركات وأصحاب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الاسلامى عرضة لاهول الغارات من قبل آسيا الوسطى التى كانت ترسل الفوج بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمورلنك واتباعهم من القادة والامراء وهم لايفهمون معنى الغلبة الا انها قدرة على الفتك والتدمير ، وأن أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين ، وعدد ماضرب من المدن والقرى فى الطريق ... ومنهم من كان يظهر الاسلام ويغير على ممالكه لانها فى زعمه تساس على خلاف شريعة الاسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الاسلامية تتسع وتمتد حتى ينقطع مابينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها أن يجمعوها الى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصحبه اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والاهواء ، فلا تلبث أن تتمزق وتتفرق ثم تتعادى وتتعاون على البغى والعدوان

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدول التى سميت بالامبراطوريات فى الزمن القديم

وقد رأينا كثيرا من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الاخطار والأخطاء

وهذه الحروب ــ ولا نكران ــ كانت من أعظم الاخطار التى امتحنت بها الامم الاسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها انما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر فى عرف الجملة من مؤرخيها ، لانها فى الواقع لم تنهك قوى الامم الاسلامية ولم تتركها موقنة بالهزيمة فى نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورثتها افراطا فى الثقة برجحانها وافراطا فى سوء الظن بأعدائها ، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم الى عدة قرون

ومن آثار الحروب الصليبية التى لاتفوت أحدا من المؤرخين أنها وقفت عوامل الشقاق بين الامم الاسلامية ردحا من الزمن ، وانها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا الى أرض الروم ودفعتهم الى مقابلة الغارة بمثلها فى صميم الديار الاوربية ، وانها أيقظت الشرق الاسلامى كله من تخوم الصين الى جوف الصحراء الكبرى فى القارة الافريقية ، وان أحمق الحمقى من الصليبيين كان انفعهم واقدرهم على اذكاء الحمية فى نفوس الامراء والسلاطين ، وان منهم لمن شغله الملك فوق اشتغاله بالدين

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع فى نظر الاوربيين ونظر الشرقيين . ولكن الصفة التى كانت غالبة عليه ولا شك هى صفة الحلم الراجح والاناة الهادئة وايثار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف والهجوم ، الا ان هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته حتى الجنون حين سمع بعزم « ارنولد » صاحب الكرك على فتح

الحجاز واعداده العدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد فى المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم صلاح الدين ليقتلن « ارنولد » بيده .. فكانت وقعة « حطين » التى تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صـلاح الدين بشرذمة من الملوك والامراء عفا عنهم جميعا الا « ارنولد » هـذا فانه لم يقبل فيه شفاعة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيـده وهو يقول : « برئت من شفاعة محمد ان قبلت فى هذا الاحمق شفاعة شفيع »

وقد استنكر الصليبيون انفسهم حماقة ارنولد هذا لأنهم ادركوا انها استثـارت من نفوس المسلمين كل قوة كامنـة واكسبتهم وقعة « حطـين » بعد هزيمتهم فى الوقـائع التى سبقتها ، وهكذا كان الشأن فى أحمق الحماقات التى اقترفها شذاذ الصليبيين ، فانها أفادت من أرادوه بشرها ، وارتدت على اصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين

وليس هذا الذى نعنيه من آثار الحروب الصليبية فى نفوس المسلمين ، فانها آثار ظاهرة لم يغفل عنها أحـد من مؤرخى تلك الحروب

ولـكننا نعنى الاثر الذى عاد بالضرر الوخيـم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهذا الاثر الوخيم العقبى هو افراط المسلمين فى الثقة بأنفسهم وافراطهم فى سوء الظن بالامم الاوربية وكل ما يأتى من نحوها ، حتى اوشـكوا ان يوقنوا انها لا تأتيهم يوما بشىء يحتاجون اليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانونى فى حصافته واقتـداره ان يتبرع بالامتيازات الاجنبية لأبناء الامم الاوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن فى وسعها ان تقسره عليها لو لم يتبرع

بها فى غير اكتراث بعقباها

ان الامم الاسلامية قد انكرت على الاوربيين الذين قدموا فى جيوش الصليبيين ضروبا من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التى تعافها وتشمئز منها ، ورسخ فى نفوسهم أن هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لانهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التى يحفظها المسلمون ، وكان انكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الازواج بغير زواج ، وكان اشد من ذلك نكرا لديهم انهم يعظمون الصور والتماثيل تعظيم عباد الاصنام للطواغيت والاوثان ، فلم ينظروا اليهم نظرة الاعلين الى الادنين وحسب ، بل وقرت فى اخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبة بشىء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم فى دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين

مثل هذا الشعور قد يحيك بصدور الامم فى اوقات كثيرة فلا يضيرها ، بل يمدها فى قوتها اذا خامرها فى ابان النمو والصعود ، ولكن الظروف التى تطورت اليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الاوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت فى الشرق فترة هبوط فى النهضات العلمية وكانت فى الغرب فترة صعود فى النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربا مقام القيادة على هذه النهضة وتخلف الشرق زمنا عن اللحاق بها ، وليس اخطر على الامم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان فى امثال هذه الظروف

هبطت النهضات العلمية فى الشرق بعد القرن الثانى عشر على أثر الغارات التى تعاورته فى كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها ما بين بخارى ، وسمرقند ، ومرو ، وبغداد ، ودمشق ،

وحمص ، وسائر المدن التى اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها فى الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التى احترقت خلال غارات التتر ، والمغول ، وغارات الصليبيين بمئات الالوف وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصرف الامراء وطلاب العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات الى التأهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو أخرى بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطرارا فى اول الامر ثم اختيارا واعتسافا مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحكوميه ، وتراخى الزمن على أثر الحروب الصليبية واستقرت الاحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد الاسلامية الوسطى شيئا من رخائها عن طريق التجارة الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد الى غيره من الطرق حول القارة الافريقية ، فاجتمع سوء الحكم الى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية ، وهذه هى الفترة التى كان ينبغى فيها للشرق الاسلامى ان يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ، ولكنها كانت ــ بحكم هذه الظروف جميعا ــ هى الفترة التى اعرض فيها الشرق عن كل حديث وعما يأتى على الخصوص من قبل القارة الافريقية ، فتأخر عن ركب الحضارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو انه استفاده ناهضا ومجاريا للنهضة فى مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاتقاء

جاءت المدارس العصرية على أيدى الحكومات التى بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا روية ، فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندى الذى يساق الى المشقة والوبال

فى غير مصلحة أو كرامة

وجاءت المدارس العصرية أيضا على أيدى رسالات التبشير التى صارحت الناس فى ظل الامتيازات الاجنبية بغرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر فى كثير من البلدان ، فأحجم المسلمون عن تعليم ابنائهم فى مدارسها وجاوزوا ذلك الى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وايمان المتعلمين

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الاولى فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها : كالفقه ، واللغة ، والادب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية ، فنظر الكثيرون منهم الى علوم الجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح او السحر المزيف ، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل فيه بغير اسبابه ، واتهموا الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين

فى هذه الفترة كان الاسلام كما يفهم الجهلاء ــ والجهلاء هم الاكثرون فى سائر الامم ــ مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والاوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى

فى هذه الفترة كان بعض المتعالمين من أدعياء المعرفة يحكم بكفر القائلين بدوران الكرة الارضية ، ولا يتردد فى تكفير من يسميها بالكرة !

وفى هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الارض ومغاربها يسألون عن الكبريت : هل يجوز مسه ؟ وهل يجوز قدح النار منه ؟ وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرته » لانها من مادة نجسة تنقض الطهارة !

وفى هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير

والادخـــار ، وعن معــاملات التجــارة من طريق المصــارف والشركات ، ويحسبون ان اللياذ بالاضرحة والتوابيت وترتيل الاوراد والعزائم يغنيهم عن السعى والتدبير ، وعن الجهــاد والاجتهاد

وفى هذه الفترة على الاجمال كان المسلم يعيش فى العــالم كمن يمشى فى خرابة مظلمــة ، لايدرى من أين تسرى اليــه عقاربها وحياتها ، ومتى تخرج عليه اشباحها وشيـاطينها . وانقلب معنى الاسلام الى معنى المخافة والاتهام ، اذ كان اول معانى الاسلام انه طمأنينــة الى الخالق وخلقه ، وكان هــذا الاسلام الذى صار اليه المسلمون مخافة لا سلم فيهــا ولا سلامة ، واتهاما لا تسليم فيه ولا مسالمة

قلنــا ان الافراط فى الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعا للافراط فى سوء الظن بالاعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتى من قبلهم ، وقلنا انه اكتفاء بالذات وخيم المغبة فى امثال هذه الاحوال

ونقول على الدوام انه ما من شر يخلو من بعض الخير ، وما من ضرر مطلق ان كان معنى الضرر المطلق انه لا يقبــل الترياق أو لا يحتويه فى كثير من الاحايين

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها فى المقاومة والامل فى التبديل وفى عدل الله بين عباده ، ولم تكد تبلغ اقصى مداها من الاضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لانها شككت المسلمين فى كفايتهم واستغنائهم وشككتهم فى رجحانهم وغلبتهم ، وقام بين المسلمين من يقول لهم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الغربيين نجحوا وتقــدموا لانهم أخــذوا بالوصايا والاحكام التى كان المسلمون اولى بها لو عقلوا وصايا الدين واحكامه

« عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون »

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

نعم . وفى اصطدام الشرق الاسلامى مرتين بالقارة الاوربية مصداق لهذه الآيات البينات

انه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع وغفل عما يحتاج اليه ، وانهزم فى وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء الى « العقيدة الشاملة » التى ميزته بين عقائد الاديان ، فهو فى مدة اليوم عند منتصف القرن العشرين ، فان لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه لقد ترك تلك المرحلة التى انتهى فيها الى جزره فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما فى ذلك من خلاف



٢ ـ المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر ، وفى العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ، وانتهى وعددهم حوالى اربعمائة مليون موزعين بين آسيا وافريقية ، وقليل منهم فى أوربا لا يزيدون على خمسة عشر مليـونا بين البلقـان ، والقرم ، والبانيـا ، واليونان ، وقبرص ، ورودس ، وبلاد البشناق ، وبولونيا ، وشواطىء بحر البلطيق فى لتوانيا ، وفنلندا ، وما جاورها

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة ان عدد المسلمين فى دولتى الهند يقارب تسعين مليونا ، وانهم يبلغون فى جزر السـوند الكبرى ، وجزر السوند الصغرى ، وجزر الملوك التى تدخل فى دولة اندونيسية نيفا وسبعين مليونا ، ويختلف المقدرون لعددهم فى الصين من خمسة ملايين الى مائة مليون ، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليونا ، وجلال نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقـدرهم فى داخل الحـدود الصينيـة ، وفى منشورية ، وانام ، وسيام ، والهنـد الصينية ، وفى الجزر التابعة لانجلترا من ارخبيل ملقا بنحو ستين مليـونا ، اما احصاءات بعثات التبشير فهى تقدرهم تارة بثلاثة ملايين ، وتارة أخرى بخمسة ملايين فى داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحالة عبد الرشيد ابراهيم بعددهم الى مائة مليون ، ويقول هانوتو احد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا انه « قد انبعثت شعبة منه فى الصين فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب بعضهم الى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموجودين

فى الصين لا يلبثون ان يصيروا مائة مليون ، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكيامونى .. »

ويعقب السيد توفيق البكرى على هـذا فى رسـالته عن مستقبل الاسلام فيقول : « ان تاجرا بلوجيا جاء القاهرة فى هذه الايام وكان قد ذهب الى الصين مرارا ، يؤكد القول بأن مسلمى الصين يبلغون ثمانين مليونا وأن علماءهم يهزءون بقول الاوربيين انهم اربعون مليونا »

وقد تلقت الصحف الاوربية برقية من الجماعة الاسلامية فى الصين ارسلتها اثناء حرب الصين واليـابان تقول فيها : « انها تتكلم بلسان خمسين مليونا من المسلمين »

فلا مبالغة — مع ملاحظة هـذه الاحصاءات جميعا — فى تقدير مسلمى الصين اليوم بنحو ستين مليونا ، يضاف اليهم ثلاثون مليونا فى التركستان ، وبخارى ، والقفجاق ، وغيرها من ولايات روسيا الاسيوية ، ويضاف اليهم خمسـة عشر مليونا فى ايران ، وبلاد الافغان ، وثلاثون مليونا فى بلاد العرب والعراق ، والشام ، وفلسطين ، وشرق الاردن ، وآسيـا الصغرى ، وبضعة ملايين فى الجزر التابعة لانجلترا ، والولايات المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الاسيويين عن ثلثمائة مليون ، وان قل ، فهو بين مائتين وخمسين وثلثمائة من الملايين

أما فى افريقية ، فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ، منهم خمسة وعشرون مليونا فى مصر والسودان ، وعشرون مليونا فى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وعشرون مليونا فى الصحراء الغربية ، والســودان الفرنسى ، وبحيرة تشاد ، والشواطىء الغربية ، ونحو عشرة ملايين فى زنجبار ، ومدغشقر ، والسواحل الشرقية ، والصومال ، وسائرهم بين الحبشة ، وأوغندة ، وكينيا ، وافريقية الجنوبية

فليس من المبالغة أن يقدر عدد المسلمين فى العالم بأربعمائة

مليون اكثرهم فى آسيا وافريقية ، واقلهم فى أوربا ، ماعدا الوفا معدودة فى العالم الجديد

فهم جميعا بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهم سكان أوربا الغربيون الذين نشأت بينهم الحضارة العصرية ، ويصدق عليهم وصف واحد فى المقابلة بينهم وبين الاوربيين المحدثين ، فلا يقال عنهم انهم تقهقروا منتكسين الى الزمن القديم ، وانما يقال عنهم انهم وقفوا حيث تقدم غيرهم مع العلم الحديث ، ولا ينسى المنصف فى هذه المقابلة أن الاوربيين الذين تقدموا هم الاوربيون الذين اتصلوا بالاسلام من قريب ، وهم أبناء أوربا الغربية ، ثم أبناء أوربا الذين احتكوا بالاسلام فى الحروب الصليبية ، ولا نعنى ان اسباب التقدم تنحصر فى هذه الصلة أو فى هذا الاحتكاك ، ولكننا نعنى ان الاسلام لم يكن قط قوة مهملة فى حركة من الحركات الانسانية سواء نشأت بين ظهرانيه ، أو نشأت فى مواطن أخرى ، وان المؤرخ المحقق لن يستقصى أسبابا للنهضات الانسانية على اختلافها دون ان يرجع بمرحلة منها الى نهاية أو الى بداية فى عالم الاسلام

وفى هذا السياق ينبغى الالتفات الى أمر واقع قلما يلتفت اليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو ان محاربة الاسلام كانت على الدوام نكبة على محاربيه من المستعمرين ، فان السابقين الى الشرق من المستعمرين الاوربيين هم البرتغاليون والاسبان ، ولكنهم لم يثبتوا فى الشرق طويلا لانهم ذهبوا اليه بسمعة العداء للاسلام ، وكان الاسبان يسمون المسلمين فى جزر الهند بالمور متابعة لما عهدوه من تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون اول من نزل بجزائر السوند الكبرى ، وجزائر السوند الصغرى ، وما بينهما من الجزائر التى يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس

البرتغاليون والاسبان وغيرهم من ابناء أوربا الغربية وامريكا دارت الدائرة على الاولين لانهم وجدوا العداء من المسلمين ، حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا فى آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الاسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها فى التركستان ، ومنشوريا ، والصين الشمالية الغربية ، عقبة من أقوى العقبات التى رصدت لها فى ذلك الطريق

هذه القوة التى لم تسقط يوما من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها واقصائها من الميدان ، ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تنقلب الامور على غير ارادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية اثبت من برامج السياسة وخططها الظاهرة والخفية ، بل هى أثبت من الجغرافية وما يسمونه حديثا بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الارض ورواسى الجبال

ونحن نستطرد هذا الاستطراد فى مقدمة الكلام على المسلمين فى القرن التاسع عشر ، لأنه يعيد الى الاذهان اخطاء المقدرين واصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الاذهان على استعداد لانتظار أخطاء اخرى من هذا القبيل ، قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب

□

انقسم العالم فى بداءة القرن التاسع عشر الى حضارة حديثة فى الغرب ، وحضارات قديمة فى الاقطار الاسيوية والافريقية ، وكان المسلمون ــ الا القليل منهم ــ فى هذه الاقطار

تخلفوا عن ركب الحضارة فى الصناعات ، والمخترعات ، والعلوم الحديثة ، واصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعا

ومنها الزراعة ، والتجارة التى كان قوامها الاكبر على الملاحة الشراعية ، فتراجعت شيئا فشيئا أمام ملاحة البخار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والإدارة ، وبقى الشرقيون جميعا ، والمسلمون منهم ، متخلفين فى هذه الوسائل الى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل

وأصبح العالم الاسلامى فى مقدمة الاهداف التى تصوبت اليها حملات الغرب الثلاث ، وهى : حملات التبشير ، والاستغلال ، والاستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات فى ترتيب الزمن لا فى الخطر والاثر . . . فانه قد بدأ مع الحروب الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الاقطار رائدا لحملة الاستغلال وحملة الاستعمار

أما العالم الاسلامى من وجهة النظر الى مركزه السياسى ، فقد كان معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر فى حوزة الدول الاجنبية ، ولم يبق فيه من الدول التى كانت على نصيب من الاستقلال فى عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى : الدولة العثمانية التى سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ، والدولة الايرانية ، والدولة الشريفية بالمغرب الاقصى

ولم تكن هذه الدول على شىء من الاستقلال فى غير الظاهر ، لانها لم تكن تملك من حقوق التصرف فى سياستها الداخلية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، واكبرها واقواها — وهى الدولة العثمانية — كانت عرضة للتدخل الدائم من قبل الدول الكبرى فى كل شأن من شئونها ، اذ كانت هى محور المسألة الشرقية التى تتلخص فى عبارة واحدة ، وهى تقسيم بلاد الشرق « اولا » بين روسيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، ثم تلحق بهذه الدول كل دولة أثبتت لها وجودا فى ميدان الاستعمار

او فى ميدان السياسة العالمية على الاجمال ، كالنمسا ، وبروسيا ، وايطاليا ، واسبانيا

١ ــ الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محو الدولة العثمانية ، ولكن الدول التى تعنيها هذه المسألة لم تكن على اتفاق فى طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك فى العجلة أو الاناة ، ولم تكن على اتفاق بينها فى نصيب كل منها من تركة «الرجل المريض» كما سميت الدولة العثمانية فى ذلك الحين

فروسيا كانت تتعجل التقسيم لتحتل القسطنطينية ومضايق البسفور ، والدردنيل ، وفرنسا كانت تتوسط بين العجلة والاناة لانها كانت تكتفى بلبنان ، وسورية ، وبيت المقدس ، ولا تحرص على تقويض الدولة العثمانية من راسها ، وانجلترا كانت تطمح الى طريق الهند ولا تأبى عند الضرورة

ان تساعد فرنسا لتستعين بها على صد روسيا والحيلولة بينها وبين بلاد البحر الابيض ، وحاولت كل منها ان تتخذ لها صفة الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية ... وكانت روسيا وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطان العثمانى بهذه الصفة ، أولاهما لرعاية الكنيسة الاغريقية ، والاخرى لرعاية الكنيسة اللاتينية فحاولت انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر أن تضيف الى ألقاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ، ولكن المسيحيين انفسهم فى الشرق الادنى لم يعترفوا لها بهذه الصفة ، لان اتباع الكنيسة الانجيلية كانوا يومئذ جد قليل بين الشرقيين

ولم تجد هذه الدول صعوبة فى اقلاق الدولة العثمانية ، لانها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الاجنبية حين تشاء ، وكيفما تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية فى بلاد المغرب والمشرق ، فلم يكن من العسير على الدول ان

تجد المطاوعين لها فى ثورتها على الحكم التركى سواء من المسيحيين ، وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الادارة التركية ... ولكن الامر الجدير بالنظر أن السياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة ، فحدثت مذابح ارمينية ، ومذابح لبنان ، ومذابح الاسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ احدى الخطط التى ترسم قبل ذلك بسنوات أو شهور ، وكانت هذه المذابح هى التى تدعو الى التدخل من جانب الدول الكبرى ، اما المذابح فى روسيا ، أو فى البلقان ، فلم يعرض لها أحد بمجرد الاحتجاج ، فضلا عن التدخل أو التهديد بالاحتلال

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعا على الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فانهزمت جيوشها فى ميادين لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ، ولما ارادت أن تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « الينى شارى » التى كانت هى نفسها تجديدا على النظم الحديثة فى حينها كما يدل عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذى دربته على الاساليب العصرية ، قبل ان يتم لديها من الجيوش العصرية مايغنيها فى حروبها المتتابعة. وكانت قد استكثرت من عقد القروض لسداد نفقات هذه الحروب ، واشباع نهمة السلاطين والامراء الذين أفسدهم الضعف والاستبداد ، فانغمسوا فى الترف والبذخ ، وكلفوا بلادهم مالاتطيق من الضرائب ، والاتاوات ، وأفضى سوء السياسة المالية الى اعلان الافلاس والعجز عن اداء فوائد الديون (فى سنة ١٨٧٤) فى مواعيدها ، واعتمد ساسة الباب العالى فى مقاومة الدول صواحب الديون وصواحب الامتيازات على المضاربة بينها ومنح الامتيازات الاقتصادية تارة لهذه ،

وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز شيئا فشيئا الى ميدان السياسة العالمية ، ولا سيما بعد حرب السبعين التى انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها ساسة الباب العالى ذريعة للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على اصلاح المواصلات الداخلية فمنحوها (فى سنة ١٨٨٨) امتيازا بمد الخط الحديدى الى انقرة بعد امتداده فى المجر الى القسطنطينية ، واتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط الى قونية على ان تخترق السكة آسيا الصغرى الى الشام وبغداد ، ولم تقف الدولة الانجليزية مكتوفة اليدين امام هذا الخطر الذى يقترب من الهند ، ولكنها اضطرت الى التراجع والسكوت حين لمحت من بروسيا بوادر الاتفاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من جوانب المسألة الشرقية ، وعلى التدخل فى القضية المصرية لمطالبتها بالجلاء عن مصر تحقيقا لوعدها

ومن خطوط المواصلات الهامة التى تمت فى بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته قناة السويس (سنة ١٨٦٩) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٨) وهى السكة التى تجاوبت باخبارها دوائر الاستعمار على انها تعبئة من تعبئات الجامعة الاسلامية

والى هذه الآونة كانت كل دولة ذات أثر فى المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا فى أوربا او آسيا ، أو افريقية ، ما عدا بروسيا التى سيطرت فى هذه الآونة على الاقاليم الالمانية باجمعها ، فاغتنم عاهلها « ولهلم الثانى » هذه الفرصة للتقرب من تركية ومن العالم الاسلامى بأسره ، وزار الآستانة وبيت المقدس ونادى فى بعض خطبه بصداقة دولته للثلثمائة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظر ساسة الترك الى دولة اوربية يعتمدون عليها فى تنظيم جيشهم

فلم يطمئنوا بطبيعة الحال الى روسيا ولم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهـذه المهمـة ، ولم يطمئنوا الى انجلترا لان وزيرها جلادستون أعلن غير مرة وجوب « طرد الترك » بقضهم وقضيضهم من كل بقعة فى أوربا ، فرحبوا بالمساعدة الالمانية على تنظيم الجيش وتدعيم الاسطول على حـذر ، ولم يكن عبد الحميد داهية بنى عثمان لينسى مؤتمر برلين ومرامى الالمان فى الوقت المعلوم نحو المشرق ، ولم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التى نجحت بين الالمان المعاصرين واتخذت صيحتها (الى الشرق) شعارا تردده وتعلق عليه الآمال فى توسيع ملك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين الى آسيا الصغرى الى أواسط آسيا ، ولم يخف عليه ماوراء حملة العاهل الجرمانى على الاسيويين وتحذير الغرب من يقظتهم وتأليبه الاوربيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الاصفر ، فتوخى فى سياسته على الدوام أن يجنح الى كل دولة من دول الاستعمار بمقدار وترك بعده ساسة تربوا فى مدرسته (حتى من أقطاب تركية الفتاة) ينهجون نهجه فى مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم يميلون الى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الاولى . وليس بالصحيح أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب الى جانب دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربا الغربية استثارت الترك الى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس الى النهاية طمعا فى القسطنطينية ، وتضمن معاونة المتربصين بالرجل المريض من دول البحر الابيض المتوسط وسائر الدول الطامحة الى الشرق الادنى ، وقد يفيد فى بيان الاعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نومىء هنا — على غير تأييد ولا تفنيد — الى ماقيل عن دسائس المستعمرين التى احكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم مخلصا أوفق من هذا التحلل

من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية

٢ ــ ايران

كان على عرش ايران فى مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار ــ اسمه فتح على شاه ــ تولى الملك بعد عمه آغا محمد الذى اشتهر بصرامته وقسوته فى اخضاع ثوار الكرج وخراسان . وقد سمى فتح على باسم راس الاسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاتحين غير الطمع وحب الفخفخة ، فاغتر بمظاهر التعظيم التى احاطه بها رسل الدول الاجنبية وراقه أن يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملوك الغرب فاستسلم لهذا الغرور وتحالف مع بريطانيا العظمى على الافغان لاسترجاع أقاليم فارس الشرقية ، وأملى له فى مجاراة السياسة البريطانية أن روسيا انتزعت من فارس بلاد الكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثانى عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركةالهندالشرقية سير جون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تتعهد فيها الشركة بامداد فارس بالسلاح والمال فى حالة الاعتداء عليه من جانب الافغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه بألا يعقد صلحا مع الافغان مالم تنزل هذه عن مطالبها فى الهند ، وقد تمكن الشاه من صد الغارة الروسية على « أروان » فى سنة ١٨٠٤ بمعاونة الضباط الانجليز وضغط السياسة الانجليزية . ثم ابرم فى أواخر سنة ١٨١٤ ــ بعد نكبة نابليون ــ محالفة عامة تتعهد فيها فارس بالغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لانجلترا وتتعهد فيها انجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة فى حالة الدفاع

ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس وتركية فى الحرب التى انتهت بصلح ارضروم ، ثم حاربت روسيا على اثر احتلال هذه لبعض الاقاليم المتنازع عليها فانهزمت وتخلت عن اروان وتبريز (١٨٢٧) وخذلتها انجلترا

فى هذه الحرب فاستدارت بسياستها الى مجاراة روسيا . . .
واخرجت البعثة العسكرية الانجليزية التى قدمت اليها لتدريب
جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع
حكام الهند على فك الحصار عنها ، وفى سنة ١٨٥٦ شهرت انجلترا
الحرب على فارس ـ اذ عادت الى مهاجمة هرات واستولت عليها
فاحتل الانجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الايرانى عن
أرض الافغان ثم تم الاتفاق على الحدود الافغانية الايرانية

وفى سنة ١٨٦٤ أنشىء أول خط تلغرافى بين بغداد وطهران
وبوشير على اعتباره « توصيلة » للخطوط الهندية ، وافتتح
خط أوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببضع سنوات

واستمر السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات
والرخص من الحكومة الايرانية ، فلما حصل البارون دى روتر
على امتياز باستغلال بعض الموارد الايرانية وارتهان المكوس
الجمركية أسرع الروس الى احباط هذا الامتياز وحصلوا على
الاذن بانشاء فرقة القوزاق والحاقها بجيش ايران . ثم احتلوا
مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان ، (سنة ١٨٨٤)
وتجددت مساعى الماليين الانجليز فمنحوا امتيازا بافتتاح نهر
قارون للملاحة ، ومنح البارون دى روتر هذه المرة امتيازا بانشاء
المصرف الامبراطورى مع الترخيص له باستغلال المناجم فى ايران
ماعدا مناجم الذهب والفضة (سنة ١٨٨٩)

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت احدى الشركات على
امتياز الدخان المشهور الذى تصدى جمال الدين الافغانى
لاحباطه ، ثم تمادى الشاه (ناصر الدين) فى الاقتراض وبذل
الرخص ورهن الموارد ، ومنها قرض انجليزى فى مقابلة رهن
المكوس الجمركية بالخليج الفارسى ، فتمكن جمال الدين من اثارة
القوم عليه واغرائهم بعصيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل
فى سنة ١٨٩٦ وقيل ان قاتله صاح به وهو يضربه (خذها من

جمال الدين)

وجلس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت ايران فى عهده نهبا مقسما بين النفوذين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك الخصم الفارسى ــ وهو فرع من وزارة المالية الروسية ــ باقراض الحكومة نيفا وعشرين مليون روبية فى مقابلة مكوس الجمارك بجميع أنحاء البلاد ماعدا خليج فارس ، واشترط على الحكومة أن تصفى القرض الانجليزى ولا تتقبل قروضا اخرى مدى عشر سنوات (فى سنة ١٩٠٠)

واحتاج الشاه الى قرض آخر بعد سنتين فأمدته به الحكومة الروسية فى مقابلة الترخيص لها بمد السكة الحديديةمن جلفةالى تبريز فطهران ، وأوشك الاتفاق ان يتم على مد الخط الى شواطىء الخليج لولا المقاومة الشديدة من جانب الانجليز : تعززها مساعى الماليين على يد(دارسى) من زيلاندة الجديدةلاغناء خزانة ايران عن معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسى D'Arcy وحكومة ايران على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التى كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصة الحكومة من الارباح ست عشرة فى المائة عدا رسوم الامتياز وحصة بقيمتها من أسهم الشركة

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمارك وضعت الادارة كلها فى عهدة نوس البلجيكى وكادت الدولة أن تشهر افلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسئول عن سياسة القروض والرخص والرهون ، ولاذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية (يولية سنة ١٩٠٦) فأسرع الشاه الى عزل عين الدولة والمناداة بالدستور ، وكظمه الغيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسابيع (ديسمبر سنة ١٩٠٦)

أما الدولتان المتنافستان على أسلاب فارس فانهما قابلتا

اعلان الدستور بالاتفاق الودى المشهور باتفاق سنة ١٩٠٧ ؛ فاعترفت روسيا بمصالح انجلترا فى الخليج الفارسي واعتبرت الجزء الجنوبى الشرقى فى المملكة «دائرة نفوذ بريطانية» وسلمت انجلترا باعتبار الجزء الشمالى منها دائرة نفوذ روسية ، وتركتا بين الدائرتين بقعة مفتوحة لكلتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها !

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشاه الجديد « محمد على » العوبة فى ايدى الروس لانه آثر الخضوع للدولة الاجنبية على الخضوع لاحكام الدستور . فأغلق المجلس واعتقل أعضاءه وانصاره ، وأعلن الحكم العرفى وأمعن فى المتظاهرين تقتيلا وتشريدا واستعان بالجيش الروسى على قمع الثوار فى تبريز ، وكانت قوتهم فيها غالبة على قوة الشاه

ثم اغتنمت انجلترا الفرصة فعملت على انشاء الشركة الانجليزية الفارسية لاستغلال امتياز دارسى باستخراج النفط فى جزيرة عبدان ، واشتد غليان الشعور الوطنى فهجم الزعيم البختيارى على قولى خان على طهران وخلع الشاه ، ثم ظهرت السياسة الامريكية فى الميدان فقدم الى طهران مستر مورجان شستر Shuster – بطلب من المجلس – لتنظيم الادارة المالية وافتتح عمله بانشاء فرقة عسكرية فى خدمة الخزانة ، وتطمين انجلترا بدعوة ضابط بريطانى لقيادة تلك الفرقة ، فأطلقت روسيا الشاه من مأواه وأرسلته الى « استراباد » وأغارت على الشمال منذرة المجلس بالتقدم الى الجنوب ان لم يبادر الى طرد شستر ومرءوسيه ، فرفض المجلس انذارها وأصر على استبقائه ، وظهرت فجأة فى طهران جماعة من الرؤساء ذوى النفوذ بين القبائل فأغلقوا المجلس وقبضوا على ازمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدولة الروسية ، وظلت فارس فى قبضة الروس الى مابعد اعلان الحرب العالمية الاولى

٣ ـ مراكش

كانت مراكش فى بداءة عصر الاستعمار أول هدف للمستعمرين لانها كانت على أقرب نظرة من دول الاستعمار فى أوربا الغربية ، وكانت فى الزاوية المقابلة لاوربا الغربية تشرف على البحر الابيض وعلى المحيط الاطلسى فكانت فى هذا الموقع مطمح الانظار أمام فرنسا واسبانيا وانجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم اليها لانها كانت مشغولة بحروبها فى القارة وكانت تعلم أن انجلترا لاتطيق دولة كبيرة على العدوة المقابلة لجبل طارق ، واسبانيا وصلت الى أوائل القرن التاسع عشر وهى تلهث من الاعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها ان تصبح فى عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . اما انجلترا فكان جبل طارق يغنيها فى ذلك الموقع عن العدوة الافريقية وكان همها أن تبقى مراكش فى يد ابنائها وفى حوزة حكومة لاتقوى على منازعتها ، وكانت وجهتها الاولى أن تحتل البحر الابيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ ان تحسب عليها مراكش بدلا كبيرا فى سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور المانيا فى ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألةبحذافيرها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وانجلترا على التعاون المشترك فى قضيتى مراكش ومصر واستقر الراى على تقسيم مراكش بين فرنسا واسبانيا والمنطقة الدولية

وقد بدا القرن التاسع عشر ومراكش على شىء من القوة بالقياس الى بلاد افريقية الشمالية ، فتصدى زعماؤها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد ان سلمت الدولة العثمانية بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشى الى تلمسان مستثيرا قبائل العرب والبربر فى طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشى أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسى من مقاومته الا بنجدة قوية جاءته من فرنسا ،

ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة أبي معزى واسره الى ان تلاقى الجيش المحتل وجيش السلطان فى ســـنة ١٨٤٤ فمنيت جيوش السلطان بهزيمة منسكرة اضطربت لها جوانب المغرب ونبهتها من غفلتها فنهضت لاصلاح الجيش وتثمير المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان « مولاى الحسن » بالملك ــ وهو من اقدر سلاطين المغرب ــ فأحسن التصرف فى مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من تنافسها وتنازعها ، وأدخل الاساليب العصرية على دواوين الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من ايفـاد البعثات الى جامعات الغرب لتخريج الخبراء فى الشئون الفنية والعسكرية . ومن فضائح الاستعمار أن الدول الموقعة على معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصل بالآستانة لمثل هذا الغرض واعتبرت ذلك منه اشتراكا فى حركة دينية معادية لاتنظر اليها بعين الارتياح والاطمئنان ، واستنكرت تجـديد العلاقة بين حكومة الآستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل السفارات بينهما لانه يغير الوضع السياسى الذى اتفقت تلك الدول على أن تلاحظ فيه بقاء الحالة الراهنة

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار فى موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا تحسب حساب اليقظة الوطنية فى مصر فتجنح الى مسالمة فرنسا ، وفرنسا تسترضى ايطاليا وتعدها بالاغضاء عن مطامعها فى ليبيا ، والنمسا تطمع فى بلاد البشـــناق من تراث الدولة العثمانية ، والمانيا تعلم أن الحرب العالمية تحول دون وصولها الى مقام فى المغرب الاقصى لمعارضة انجلترا وفرنسا وترضى بنصيبها فى الكونغو وبلاد التوجو من القارة الافريقية

وفى هذه الاثناء توفى السلطان الحسن وخلفه الســلطان عبد العزيز والمغرب الاقصى فى أشد مآزقه واحوجها الى الحزم

والحنكة ، فعبث فى مقام الجد وسوأ سمعته فى العالم الاسلامى فضلا من العالم الاوربى بما كان يشتغل به ـ أو يتلهى به على الاصح ـ من سفساف الامور ، وأرسل الى مصر وغيرها فى طلب المغنين والراقصات وأطمع الدول فى العدوان على بلاده بهزله وغرارته ، فانعقد مؤتمر الجزيرة (سنة ١٩٠٦) فى أسوأ الظروف بالنسبة الى المغرب وشهده مندوبون من قبل السلطان وافقوا على ماتقرر فيه باتفاق الدول التى اشتركت فيه وعدتها بضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر فى ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراكش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنسا مهمة الحراسة وتنظيم ادارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف انجلترا وروسيا باستقلال ايران ذودا للدول الاخرى عنها وانفرادا بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو اطلاق يد فرنسا شيئا فشيئا فى البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها

وشبت الثورة الوطنية على أثر مؤتمر الجزيرة لعجز السلطان واسترساله فى لهوه واسراعه الى اقرار الوضع الجديد فى بلاده، فبويع السلطان عبد الحفيظ بعده وتعهد قبل مبايعته بمقاومة السيطرة الاجنبية واعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة، فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية واغاروا على العاصمة واعلنوا الحماية ، فكان اعلانها فى تلك الآونة (١٩١٢) اول خطوة من الخطوات الحثيثة التى دفعت بالعالم الى الحرب العالمية الاولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها فى شمال افريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التى كانت تحول بينها وبين التبسط فى مطامع الاستعمار

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الاسلامية المستقلة خلال القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين

أما الامم التى كانت فى حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها

فى حاضر الاسلام ومستقبله لايقل عن شأن الدول المستقلة ، سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكانتها من عالم الحضارة ، وأكثر المسلمين عددا على هـذا الترتيب هم مسلمو الهند ومسلمو الجزر الشرقية (اندونيسية) ومسلمو الصين .

١ ـ الهند

فى أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الانجليز فى الهند وخيل الى الاكثرين انه قد صار فيها معلما من معالم الاقليم كالجبال والانهار ... وتندر المتندرون بموعد خروجهم منها فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعد التى تضرب لوقوع المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون فى الثلاثين من شهر فبراير ، أو يخرجون حين يلتقى أحدان ، أو حين يلتقى المشرق والمغرب وهيهات يلتقيان

واذا كان ثمة أحد فى الهند كان يؤمن بخروج الانجليز منها لا محالة فهم مسلموها ، لانهم على يقين بوعد كتابهم أنهم هم الاعزة اذا استقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الامة ودخلوا الهند والدولة التى تقودها فى أيدى المسلمين فحاربوهم وعملوا على اضعافهم وصرح أحدهم لورد ألنبرو Ellenborough بعداوتهم فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه الى تقريب الهنديين » وجهر لورد الفنستون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنديين فى ادارة البلاد ، وهى الخطة التى نادى بها كاتب المجلة الاسيوية قبل ذلك بنيف وثلاثين سنة

« وكان المسلمون فى ابان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة أنهم يحرمون

الربا ، وعن ملك الارض أن الارض لم تكن مملوكة لاحد ولكنها كانت متروكة للزراع والجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا وجعلوا الزراع اجراء فى ارضهم واعتمدوا على هذا النظام زمنا لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الارض على اقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية » (١)

ثم زاد المسلمين ضعفا أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لان المدارس الحديثة كانت فى أيدى المبشرين ، وأن البراهمة بالغوا فى عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الاسلام بين صفوفهم ، وشرح ذلك احدهم الاستاذ لونيا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار فقال : « ان المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرنة التى لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالاغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطووا فى الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وازيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم فى الواقع خلال المجتمعات الهندية الا المسلمين . فانهم لم يزالوا فى الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة فى الوحدانية كل هوادة فى قبول الشرك والارباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون فى أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات فى وضع القنطرة على الفجوة ، ومابرح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة بمكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وادبهم واضرحتهم وأوليائهم »

---

(١) كتاب « القائد الأعظم » للمؤلف .

وشهد المؤلف بفضل المسلمين فى تعليم أهل الهند مبادىء المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : « ان احدى النتائج التى نجمت من حكم المسلمين فى الهند أن المجتمع قد انقسم فى عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لانهما ما عتمتا أن اندمجتا فى المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الاسلام قد شق المجتمع من الاسفل الى الاعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين فنشأ فى أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران فى جميع طبقاتهما قل أن تصل بينهما علاقة فى المعيشة أو معاشرة ، واشتدت محافظة البرهميين أمام غيرة الاسلام فى نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة فى قيود الطبقات والطوائف وما اليها من القيود الاجتماعية »

وهذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والاعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين

وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقاومة الوطنية بين الهنديين ، لان زعيمها الاكبر طيلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء والغاء اللغة الاردية وابطال القوانين التى تحترم شعائر المسلمين ، ونظر الى المسلمين نظرته الى الانجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهروا بضرورة القضاء على كل أثر للاسلام فى الهند وندبوا أحدهم لقتل غاندى لانه كان يوصى بغير هذه الخطة فى معاملة المسلمين

ان الاستاذ لونيا الذى اقتبسنا ماتقدم من كلامه لم يعلل نجاح الاسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو أنه علل هذا النجاح بعلته الصحيحة لاظهر الخطأ البين فى قول القائلين أن

الاسلام قد شاع بين المنبوذين لانه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات . فان البوذية كانت خليقة ان تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه الى معاملة المنبوذين ، وانما يتجلى هنا سر نجاح الاسلام الذى اجملنا بيانه فيما تقدم من هـذه الرسالة ، وهو شمول العقيدة الاسلامية وعلاجهـا النفس الانسانية من داء الفصام الذى يقلقها ولا يريحها الا باعتزال الدنيا وحل المشكلات بتجاهلها والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصدر القوة الغالبة والقوة الصامدة فى المسلمين ، وهو هو البقية التي بقيت لهم فى الهند بعد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصغرى والحرمان من ثروة الارض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزلة امام الحكومة المسيطرة وامام الكثرة التى تربى على ثلاثة اضعاف ... ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندى المسلم من عدة غير انه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم اقدر دعوة للاصلاح برعاية السيد أحمد خان ، ويرجع مبدؤها الى انشاء جماعته العلمية فى عليجرة (سنة ١٨٦١) ثم انشاء صحيفته « تهذيب الاخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته الى انجلترا (سنة ١٨٧٠)

وتشعبت حركات الدعاة الاسلاميين فى الهند خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر على حسب اتســاع الاقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الاصلاح ثم دعوة المهدية على قول من قال انه يظهر على راس كل مائة سنة داع يجدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام احمد خان القاديانى الذى نشر فى أوائل القرن الهجرى كتابه « براهين الاحمدية » ثم ادعى انه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى (سنة ١٩٠٤) انه اقنوم كرشنا واقنوم الروح الالهى كله ، فاتبعه فى اول الامر طائفة

من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدين بنبوته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض مايروى عنه من دعوى النبوة والحلول . وقد أحيط ظهور القادياني بالشبهات لانه لقى من تشجيع الحكام البريطان مالم يكن مألوفا منهم فى معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الاجنبى وتفسير أمـر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الاكثرين لتلك الشبهات ، وانما استحق الخلاف عليه أن يقوى لان هذه الفتوى حملت على محمل التقية ، وهى مقبولة فى اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقى الدعاة الى أهل البيت ما لقوا من عسف الامويين والعباسيين

على أن الهند ــ مع بعدها فى المشرق ــ كانت تتجاوب بكل صديق قريب أو بعيد من الدعوات الاسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ماظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال (سنة ١٨٠٤) واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية . فاعتبرت الهند دار حرب الى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعـد ذلك بزعامة السيد احمد الباريلى فى البنجاب وأوجب على اتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم فى القتال حتى قتل (سنة ١٨٣١) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصـل بطريقة الفرايضية وافتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيهـا صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين

وترامت الى الهند أنباء الدعوة المهدية فى السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهزام القائد الانجليزى فيها ، فقد حذر الانجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئات الالوف من فتاوى العلماء المنكرين لهـا ، وذهب بعض ساستهم الى الزعيم المصرى « احمد عرابى » فى منفاه بسيلان

يسألونه عن مهـدى السودان فكان جوابه لهـم من جنس السؤال .. وقال لهم ان المهـــدى فى الاسلام هو كل من هداه الله

وقد تطلعت الهند الى دعوة جمال الدين الافغانى كما تطلعت الى الدعوات التى سبقتها ، وصح فيها انها كانت لاتساعها وتعدد بيئاتها اصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعا أن اصـلح الحركات وأدومها أثرا هى حركات التجديد التى تجارى العصر ولاتنقطع عن أصول الدين ، وأخفقت فيها حركات الجامدين المتشبثين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المبتدعين الذين انقطعوا عن الاصول وخرقوا فى العقيدة خرقا يخالف جوهر الاسلام

ولقد بدأ القرن العشرون والمسلمون فى الهند يتطلعون الى دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الاولى عن شدة فى الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة قصواها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التى يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى استقرت على التجربة الأخيرة بقيام دولتى الهند والباكستان

٢ ـ اندونيسية :

واذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينيـة فالجزر الاندونيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه ومشتقاته ، لانها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياســية ، واختبرت اســاليب البرتغاليين والهولنـــديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين ، وعاصرت الاستعمار من أيامه الاولى فى الشرق الى أيامه الاخيرة على النحو الذى صار اليه فى القرن العشرين ، ولا نظن أن خطة من خطط الاستعمار اتبعت فى ناحية من انحاء العالم لم يتبع لها

شبيه فى هذه الجزر التى تعد بالالوف

ولعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الاسلام بين الامم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله اليها . ففى كل موضع فيها تصحيح لاوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشاره بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر من الاحيان ، وحيثما وجد التجار والرحالون من العرب على شواطىء هذه الجزر فهناك مسلمون على المذهب الذى يأتمون به من مذاهب الائمة الاربعة ، واذا كان الترك على الاغلب يأتمون بمذهب أبى حنيفة وكانت للعشائر التركية دولة فى الهند فالدولة لم تصل الى الجزر بسلطانها وقوتها بل وصلت اليها بالمسافرين من تجارها ومهاجريها ، ولهذا يوجد الحنفيون حيث وجد هؤلاء التجار والمهاجرون ويوجد الى جانبهم أتباع المذهب الشافعى الذين اقتدوا بالعرب القادمين من بلادهم غرباء بغير دولة ولا صولة تكره الناس على مذهبها فى شئون العقيدة ، وهى أعصى الشئون على الاكراه . . ومع هؤلاء وهؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة ذات سلطان تدين بمذهب من مذاهبها . ولم يزد عدد العرب فى القرن التاسع عشر على ثلاثين ألفا فى جميع جزر الارخبيل ، ولكن المسلمين يقاربون سبعين مليونا من أبناء البلاد الاصلاء وبعض الهنود

وهذه البلاد من أغنى أقطار العالم بالمحصولات الزراعية ، ينمو فيها القصب والبن والشاى والارز والبطاطس وتنبت فيها الاشجار التى تخرج الاصماغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ، وأشهر محصولاتها الابازير والتوابل التى تهافتت عليها أوربا ومن أجلها حاول الرحالون فى القرن الخامس عشر أن يصلوا الى منابتها من المغرب ، فانكشفت لهم القارة الاوربية على غير

انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية مقابلة لهــذه الجزر التى كانت تعرف باسم جزر الهند الشرقية

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الاول وصحبت الاستعمار من أول بعثاته الى عهده الاخير

وابناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هي لغة الملايا ، وشيوع هذه اللغة بينهم مع شيوع الاسلام هو الذى وحدهم وعودهم الشعور بقومية واحــدة ، على الرغم من الجهود التى بذلت للتفرقة بينهم باحياء اللهجات الاقليمية وتشجيع «الابجديات» التى تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الاستعمار قد زود هذه اللغة على غير قصد منه بالابجدية اللاتينية التى رسمت لها كتابة واحدة لايسهل تنويعها وتفريقها على حسب اللهجات فى معاهد التعليم الحديث

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم يعرفها الهولنديون الا بعد قرن كامل ، ثم تبعهــم الانجليز والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة ابنــاء البــلاد لانهم جاءوهم بعد البرتغاليين فحالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء واقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجــارة الهولندية تنافسا على الربح الغزير الذى استأثرت به الشركة الاولى ، فوحدت حكومة هولندة بين هذه الشركات وجمعتها الى شركة واحدة هي شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد تعاقدت هذه الشركة فى مطلع القرن السابع عشر مع مملكة بنتام على احتكار التجارة فى موانئها واسواقها واعفائها من الضرائب وامدادها بالجند والعــدة اللازمة لصــد الشركات الاوربية الاخرى ، اذا أدى اغلاق الموانىء دون يسـفنها الى الاعتداء على بلاد المملكة

ولما وفد التجار الانجليز على الجزر كان الهولنديون قــد أسرفوا فى مطالبهم فرحب القوم بالانجليز واعانوهم على الشركة

الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحـرية كبيرة وحاصرت الموانىء ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتتحوا عهد استعمارهم بانشاء مدرسـة فى العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة ، واغتنموا فرصة النزاع بين الامراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التى أسعفتهم مرارا فى أشد أوقات الحاجة اليها

الا أن التنافس التجارى بين المستعمرين قد اضطر الشركة الى التحول من التجارة الى الزراعة ، واضطرها التنـافس كذلك الى الاكثار من بناء السفن الحربية والاستعداد بالاسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والانجليزية فكسدت تجارة الشركة ولجأت الى الاستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الاحتكار التى أتفقت عليهـا مع الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندة فى أثناء الحرب الفرنسيةالانجليزية فاستولى الانجليز على مستعمرات هولندة جميعا ، وآلت البلاد الى شركة الهند الشرقية الانجليزية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الامـراء والمصـلحين الى الحاكم الانجليزى لاقناعه بتوحيد الامارات الاندونيسية فى شبهولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية ... فلم يقبل مجلس الشركة فى لندن هذا الاقتراح ! واستعاض عنه بالاكثار من الحـكومات المحلية والغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملغاة

ولما عاد الى هولندة استقلالها بعد انهزام نابليون أمام الجيش الانجليزى الهولندى فى وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها ... واظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصيانا « متفقا عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين (سنة ١٨٢٤) على تسوية تحفظ لانجلترا جزءا من المستعمرات وتعيد سائرها الى الحكومة الهولندية

وعادت الادارة الهولندية الى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع المجاعات والازمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الوقيعة بين أمراء الممالك وتأليب صغارهم على كبارهم وانقياد صغارهم للدسيسة الاجنبية خوفا على سلطانهم المحدود من غلبة الامراء الكبار عليهم . ولم تهدأ هذه القلاقل الا فى السنوات الاولى من القرن العشرين ، ثم أذعنت هولندة كما أذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضات الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى ، فاستجابت الشعب الاندونيسى الى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية فى هذه البلاد لاول مرة فى ظل الاستعمار

ويرجع فضل النهضة الوطنية الى يقظة المسلمين وتاسيس اول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وهى الجماعة التى انضوت اليها جماعات متعددة بعد ذلك باسم « مسجومى » ... كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين اندونيسية » Madjelis sjuro muslimin Indonesia

واكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لانهم استفادوا من تجارب الاصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم للاصلاح بعد توافر اسبابه فى أبان دعوة الاستاذ الامام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الاسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طلبها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين ، وقد تمحصت التجارب خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الاسلامية الاولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فاسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الاستاذ الامام رحمه الله

٣ ـ الصين :

ومسلمو الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وانما يرجع الخطأ فيه الى تعديل التقاويم الصينية من حين الى حين ، بحيث تتسع فى بعض العصور لفرق عشرين سنة أو ثلاثين تزيد تارة وتنقص أخرى ، وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الاسلام قد دخل الى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل . وقد هزم المسلمون الفرس والروم معا بعد الهجرة النبوية بجيل واحد فأرسل كلاهما الى الصين يستغيثون بابن السماء ويهولون له فى خطب هذا العدو الظافر .. ظنا منهم أن هذا التهويل يحفزه الى المبادرة باغاثتهم فى الطريق حرصا على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر مما حسبوه ، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس الى مسالمة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله الى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله فأوفد اليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التى حيرت سفراء الغرب وقهارمة البلاط فى مملكة ابن السماء بعد اكثر من عشرة قرون ، حين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا اليه راكعين وعز على هؤلاء السفراء أن يحيوه بتحية أكبر من تحياتهم لملوكهم . فان العاهل سوان تسنج غره ماسمعه عن اضطراب أحوال الدولة الاسلامية فجرد على تخومها جيشا كبيرا يريد أن يدحر به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم . فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين أنفذهم الى بلاط ابن السماء أن يعرضوا عليه الاسلام أو الجزية أو مواصلة القتال . فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لاول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين . ثم مات الخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجزل العاهل

عطاء الجيش الاسلامى وأذن لهم بالبقاء فى بلاده ، فسموا باسم القبيلة الصينية التى كانت الى جوارهم ودانت بالاسلام مقتدية بهم ، وهى قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعا يعرفون باسم « هوى هوى » فى جميع بلاد الصين

ويؤخذ من سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تمنح الاسر الاسلامية المقيمة فى « سيانغو » خمسمائة الف اوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل « سو تسنج » الذى ثار به الجند بعد اكراه أبيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسى ابى جعفر فأمده ببضعة آلاف جندى هزموا الثوار واقروه على عرشه فاستبقاهم فى أرضه (سنة ٧٥٧) ... ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون فى غرب الصين

الا أن المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانى الجنوب فى كانتون وما جاورها ، واوغل بعضهم الى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم اقليم فى الاقطار الصينية على الاجمال ، ويسمى المسلمون فى الشمال الغربى عند قانصوه وشنسى بالتنجان أى المنتقلين الى الدين الجديد ، ويسمون فى سنكيانج بالترك لانهم من السلالات التركية فى التركستان ، ويسمون فى يونان بالبنشاى وهم من سلالة الترك والعرب واهل الصين الاقدمين ، وليس هؤلاء جميعا من سلالة المسلمين الاولين ، بل منهم اناس من أبناء الصين آثروا الاسلام اعجابا بأهله ، ومنهم من كان آباؤهم يبيعونهم فى أعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين على عقيدتهم ، ولم يحل تحريم المسلمين اكل الخنزير وتعاطى الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم الى دينهم بالقدوة الحسنة

والمعاملة المرضية والامانة فى التجارة والزراعة ، فأسلم كثيرون بغير اكراه على قلة اكتراث الصينيين بالتحول من دين الى دين لانهم لايبالون مايعتقدون اذا تركت لهم عبادة الاسلاف ورعاية التقاليد فى الشعائر وآداب السلوك

وقد شقى المسلمون فى الصين بحكم أسرة المانشو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعلمت هذه الاسرة الواغلة تاريخ المسلمين فى نصرة الاسرة المخذولة فأشفقت من ثورتهم وتعللت لهم بالعلل التى تصطبغ بصبغة الدين لتنفير البوذيين منهم ، فحرمت عليهم ذبح البقر (سنة ١٧٣١) مع أنها تبيح ذبح الخنازير ، وظنت أنها ترضى بذلك طوائف البوذيين وترضى سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير ويسرهم أن يضطر المسلمون الى أكله بعد تحريم لحوم البقر عليهم ، فثار المسلمون وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة فى معارك كثيرة ومنها معركة فى التركستان الصينية قتل فيها ألفان وانتحر الوالى خوفا من القصاص (١٨٦٣) . وفى هذه الآونة استقل البطل التنجانى يعقوب بك بحكم التركستان وأوشك ان ينفصل بها وبالاقليم المجاور لها لولا أنه مات فجأة (١٨٧٧) واختلف أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، الى أن سقطت دولة المانشو وكان لثورات المسلمين فى الغرب والشمال اثر فى اسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين المسلمين فى حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول من تعرض لبأسهم فى حربها مع الصين (سنة ١٨٧٥) فخطبت ودهم وتقربت منهم جهرة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من أمراء البيت المالك الى دار الخلافة لتستميل اليها المسلمين الصينيين فى خصوماتها مع أسرة المانشو ومع الروس فى وقت واحد ، وكانت أسرة المانشو قد حرمت على المسلمين الاتصال

بالعالم الخارج فتعذر عليهم أداء فريضة الحج ولكنهم كانوا يتحيلون على الخروج لاداء هذه الفريضة بمختلف الحيل ، فلما أحست بمساعى الدول بينهم وتسلل الدعاة اليهم من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم، فنشأت بينهم عادة غريبة وهى عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الامم القريبة لينوبوا عنهم فى الحج بأسمائهم ، خوفا من النفى الدائم اذا غادروا البلاد بغير اذن الحكومة ، ولم تخل القيود من اثرها المحمود . فانها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ القرآن فكثر بينهم من يعرفون لغته ويقرءون بها قراءة المجتهد فى أرض معزولة عن الثقافة العربية ، وتعزى الى هذه الفترة نهضة التجديد بين مسلمى الصين الغربية ، وهى كسائر النهضات مقبولة عند فريق ، مستنكرة أو مشتبه فيها بين فريق المحافظين على كل قديم

ولا يزال مسلمو الصين فى غمرة من جرائر الظلم الذى حاق بهم على عهد الاسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيرا بعد قيام الجمهورية ، ولكنهم على اية حال كانوا فى مطلع القرن العشرين قوة لا تهمل فى حساب احد يعنيه أمر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم الجمهورية عنصرا من العناصر الخمسة التى يقوم عليها بناء النظام الجديد

امم اخرى

تلك فى العالم الاسلامى اكبر الجماعات التى بقيت الى ختام القرن التاسع عشر فى حكم غيرها ، وهى جماعات كبيرة حتى بالقياس الى اكبر الجماعات من حولها ، اذ ليست الصين مثلا على عقيدة واحدة بملايينها الاربعمائة، ففيها الطاويون والبوذيون واتباع كنفشيوس وطوائف شتى لاتقيم شعائرها فى بيعة واحدة وقد تواترت الادلة على الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء فى جميع الاحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هذه الرغبة بعد اعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليمان هوفر معتمدا على مراجع الحكومة العامة أن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الاستاذ احمد على الباكستانى عن خطأ هذا الاحصاء معتمدا على عدة مراجع منها دليل الصين الرسمى فى سنة ١٩٤٣ ، فان تعداد سنكيانج وحدها فى ذلك الدليل ٤ر٣٦٠ر٠٢٠ وتعداد قانصوه ٦ر٢٥٥ر٤٦٧ وتعداد شنسى ٩ر٧٩٩ر٦١٧ وكلها بلاد اسلامية اكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمى يونان وشنغهاى ونتغسيه وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادى اليانجتسى وقد ذكر ولز ولیامس احصاءهم فى كتابه الذى ظهر قبل خمسين سنة (١٨٨٣) فقدرهم بناء على ذلك الاحصاء بعشرة ملايين ، ولا حاجة الى شواهد اخرى أو الى استقصاء سائر الاقاليم لاثبات تلك الرغبة فى الاقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم أن الجماعة الاسلامية التى كان ولاة الامر الصينيون يودون الاكبار

من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت ـ باذن ولاة الامور ـ أنها تمثل خمسين مليونا من الصينيين

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير فى قارة كالقارة الاسيوية يتقدم اعتبار العدد فيها اليوم على كل اعتبار

وهناك شأن آخر لابد من الالتفات اليه فى كل كلام يتعلق بالجغرافية الاسلامية ، فلا يخفى أن البلاد الاسلامية تبتعد عن شواطىء البحار بتدبير أو بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف لها فى بعض المواقع ومصدر قوة لها فى المواقع الاخرى ، فالمسلمون فى وسط آسيا قوة لانهم هناك ميزان القارةالداخلية لا يتم أمر من الامور فى سياسة العالم التى ترتبط بتلك المواقع ان لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم فى الجزر الهندية الشرقية يملكون الشواطىء فلا يهمل شأنهم فى كل سياسة عالمية لها علاقة بحرية ، وهم فى الباكستان شرقا وغربا يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسة القارة الاسيوية بعد النظر الى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الاسلام

وتعاصر هذه الجماعات الاسلامية الاسيوية امم شتى لا تساويها فى العدد ولكنها ملحوظة المكانة والمكان لغير ذلك من الاعتبارات ، وفى طليعتها وادى النيل والبلاد العربية

وادى النيل

فوادى النيل قضى القرن التاسع عشر كله ـ اسما ورسما ـ فى حوزة الدولة العثمانية ، ولكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الاسلامى ، لجملة أسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة أخرى

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الاسلام ، وكان ملوك الافرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الاسلام اذا انتحل أحدهم لنفسه لقب الامارة على المسيحيين ، وكانت مصر طليعة الجيوش الاسلامية فى مقاومة الصليبيين وبيت القدس تابع لها فى أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العالم الاسلامى فى القرون الوسطى وهو لايعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة اليها من الجامع الازهر ، وعظمت مكانتها أمام الغرب بعد الحروب الصليبية فى عهد الاستعمار وفى عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الالمانى « ليبنتز » يغرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضاء على المستعمرات الهولندية ويقول له : «ان هولندة لا تجسر حينئذ على معاداته لانها تجر عليها غضب العالم المسيحى اذا حاربته وهو مشغول بفتح معقل الاسلام » ، ولما فكرت الدول فى أمر قناة السويس كان المركيز دارجنسون Dargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول :

« انه فتح صليبى لجميع المسيحيين »

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد العالم الاسلامى الى الحضارة الحديثة ، لانها تنبهت الى مزايا

هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية اليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت فى حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات فى كل علم حديث

ويعتبر القرن التاسع عشر فى مصر بمثابة الازمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الاسر والحرية، واستهلت أمة مصر سنواته الاولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت فى اجماع القادة على عزل الوالى العثمانى وترشيح وال يختارونه ليخلفه على شرطهم من الاستقامة فى الحكم والتعفف عن الحرمات والاموال ، فتولى الامر « محمد على » ولجأ الى النظم الحديثة فى ادارة الدولة وتثمير الارض والانتفاع بماء النيل ، ولولا اسرافه فى العدة لتوسيع ملكه لادركت البلاد أضعاف ما ادركته من المنعة والتقدم بعد القضاء على عصابة المماليك

وقد استفادت مصر فى هذا القرن من الحضارة الاوربية وأوشكت أن تخلص لها فوائدها لولا بقايا الامتيازات الاجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الاول الى أيام توفيق بن اسماعيل ، وفى عهد هذا تفاقمت بواعث السخط والنقمة فثارت الامة تطلب الاصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاة ، فتذرعت بريطانيا العظمى باختلال الامن فى مصر لضرب الاسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع فى الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون ، ولم يحدث قط ان مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الارض فى أوربا أو أن اضطهاد المخالفين فى الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الازمة النفسية

التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فحدثت فيه نكبة الاحتلال الاجنبى وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية فى وجه الدولة صاحبة السيادة وهى الدولة العثمانية ، وفى وجه حكام مصر وهم سلالة محمد على ، وفى وجه السيطرة الفعلية وهى سيطرة المستعمرين ، ويحسن بالمؤرخ الذى يعنيه الاستقصاء فى النهضات الفكرية على الخصوص أن يقرر فى ثقة ويقين أن العصبية العمياء لم تكن قط عاملا فعالا فى حوادث مصر الهامة . فقد كان شعور مصر اسلاميا كلما أحس العصبية من الغرب فى عدائه للأمم الاسلامية . ولكن الهتاف بالسخط على « العثمانلى » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه أن جماهير العامة كانت تنادى فى أواخر أيام المماليك مستنجدة بالمتولى لهلاك العثمانلى ، وكان هتافها الذى لايعقل أن يصدر من غير العامة « يامتولى يامتولى . تخرب بيت العثمانلى » .. وبعضهم يتعلم ويتخرج فيستبدل المتجلى بالمتولى ، وهو وما جرى مجراه مسطور فى تواريخ مصر بأقلام المصريين والاجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين

أما الخاصة فمنهم الحزب السياسى الذى نادى « بمصر للمصريين » قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى راسهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الاولى وكان وكيلا للهيئة النيابية التى تألفت فى أوائل القرن العشرين باسم « الجمعية التشريعية » واثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها ومقدرتها على قيادة الامم بفضل من فيها من الاعضاء لا بمقدار مالها من الحقوق فى النصوص والاحكام

البلاد العربية

ومن تاريخ الاصلاح الاسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الاصلاح فى العالم الاسلامى يخلق حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة ، فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها مايصلح للبداوة ، وكل ماهنالك أن الاصلاح فيها يتأخر به الزمن لانه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية مالم يكن لزاما فى البيئات البدوية

فالنهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر . ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الامام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الاوطار » ، وكلاهما ينادى بالاصلاح على نهج واحد : وهو العود الى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة ، وانما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقه والحديث لان الوهابيين هدموا القباب والاضرحة فى الحجاز واصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى ابان حربها مع الدول الاوربية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد أودى بدولة على بك الكبير فى مصر فانتفض عليه أعوانه

وتمكن منه حساده بعد محالفته لروسيا فى حـرب الخلافة الاسلامية

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثا فى الجزيرة العربية ولا فى أرجاء العالم الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه الى الهند والعراق والسـودان وغيرها من الاقطار النائية ، واعجب المسلمين أن سمعوا أن علة الهزائم التى تعاقبت عليهم انما هى فى ترك الدين لافى الدين نفسـه ، وأنهم خلقاء أن يستجدوا مافاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة الى دين السلف الصالح فى جوهره ولبابه

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها فى هذه المرحلة أن تستغل التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمـراء الجزيرة فى داخلها وعلى شواطئها . فسارعت بريطانيا العظمى الى التعاقد مع أمراء الشواطىء على نوع من الحماية الخفية ، وأحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية الى العراق ، فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هـذه الامارات التى تخضع لها وتعمل لها فى السر مالا تستطيعه فى العلانية

الهلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية فى نهضة الاصلاح الدينى ومجاراة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون فى بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة الى التغيير ولكنهم لايلتمسونه فى بساطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لالتماسه فى العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم فى المدارس التركية وقدم بعضهم الى الجامع الازهر بمصر أو تلقى العلم على منهاجه من علماء بلده

ولما تسابقت الدول الغربية الى فتح المدارس فى لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول : « ان التعليم خير الوسائل فى التبشير والتنصير »

ومن خدام الاستعمار طائفة تمهد له بخدمة اللغة العربية تشجيعا لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتيالا على نفث بعض المغامز فى طيات الكتب التى تنشرها ، وان خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لايخلو من الخير وان ساءت النية عند ناشريه

وجملة الحال فى بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر أنها تتقدم فى نهضة اسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وأن هذه النهضة

يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين يذهب الجناح السياسى منهما بعيداً ويصطنع الجناح الدينى شيئا من الاناة والمحافظة

وفى داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمناولة والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون الى أقـوال فى مسألة الحلول ومسألة الامامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة المعتدلون ... وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوى على عزلتها ، الا أفرادا منهم يقصدون الى معاهد العلم الحديث فى لبنان ومصر والديار الاوربية



افريقية الشمالية

أما فى أفريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس فى سنة ١٨٨١ وسلكت فى كل منهما السياسة التى تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار سواء منه ما ينتحل المبادىء الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية

فنابليون الثالث قد منح المسلمين فى الجزائر حقوقا كحقوق المواطنة ، وهو عاهل مطلق اليدين ... ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود

وحكومة فرنسا وهى تنادى باعتزالها للدين تضع فى « الميزانية » التى عجزت مواردها عن مصروفاتها بابا واسعا لمعونة المبشرين فى أفريقية الشمالية ، ويعلن وزيرها فى البرلمان أن « السياسة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولاتتخطاها الى المستعمرات

وقد ابتدأ القرن العشرون فى الجزائر وتونس بنهضة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستمهلها المحافظون ، ولم يبق من المحافظين فى نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لانه بدعة مستمدة من الشرائع الغربية ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتحرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد

وتم احتلال المستعمرين لافريقية الشمالية باحتلال طرابلس فى سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الايطاليين ،

وسمعت فى ايطاليا قبيل الزحف على طـرابلس اناشـــيد « الصليبية » فى نغم جديد ، ولكنها سمعت أيضا بعد ذلك بزهاء ثلاثين سنة تمجيداً لغزوة الحبشة وابتهاجا بتخليص أثيوبية القديمة من « الهمج » الذين دنسوا دين المسيح !

مسلمو الحبشة

ومن أكبر المجاميع الاسلامية فى القارة الافريقية مسلمو الحبشة وعدتهم مع المسلمين فى الصومال واريترية لاتقل عن ستة ملايين

وتجمع التواريخ التى كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة فى القرن التاسع عشر على سوء حالهم واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعا ومنهم المسلمون ، وجاء فى احدى الرسائل التى كتبها جوردون الى أخته « أن يوحنا ــ ويا للعجب ــ يشبهنى تعصبا للدين وله رسالة سينجزها ، وهى تنصير جميع المسلمين » (١)

وقد أشار ترمنغهام فى كتابه عن « الاسلام فى الحبشة » الى أعمال يوحنا هذا فقال فى صفحة ١٢٢ « ان بعض المسلمين تحولوا الى بلاد الغالا أو المنخفضات الاسلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنه تنصر لا يعنى لديهم الا القليل ، اذ كان مقصورا على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Massaia انه رأى بعينه اناسا منهم يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها الى المسجد ليزيلوا أثر العمادة على يد الامام » (٢)

---

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التى طبعت سنة ١٩٠٢ .

(٢) Islam in Ethiopia by Trimingham

وبعد أن قتل هذا الملك فى حربه مع الدراويش حسنت أحوال المسلمين بعض الشيء ولكنهم تعرضوا لمظـالم شتى يذكرها السياح من الاوربيين كما ذكرها السياح الشرقيون فى كتب الرحلات الحديثة

السودان

ونريد بالسودان هنا جملة الاقطار الافريقية التى يقطنها الزنوج ... وفيه مسلمون فى جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه

وموقف الحكومات الاجنبية فى أقطار هذا السودان جميعا هو موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الاوربيين ، وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين الى النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير فى بلاد الوثنيين ، فتبيح لهم السفر الى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات (١)

وصرح القس شو فى سنة ١٩٠٩ « بأن قبائل الوثنيين مالم تدخل فى المذهب الانجيلى قريبا فهى حتما صائرة الى الاسلام »

وعقب ترمنغهام على هذا فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان فقال فى صفحة ٣٨ « ولكن هذا الخطر قد زال الآن »

ويفهم من كتاب السودان المتغير The changing Sudan تأليف ولسون كاش Cash أنه مامن قائد أو رائد أرسلته مصر الى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر بايعاز من الدول الا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه

---

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الاسلام فى السودان »

التبشير على الاجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الاسلام من الاستعمار فى القرن التاسع عشر على الخصوص ـ نوجز الموقف الذى يقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل فى مختلف الاقطار

فالتقارير التى كتبها رسل التبشير مجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده الى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو للكنيسة الانجيلية ، ومنهم من يجتهد فى تحويل المسيحيين الشرقيين الى مذهبه لان التحول من مذهب الى مذهب فى ديانة واحدة أيسر من التحول من ديانة الى أخرى

وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبين فى أواسط أفريقية وفى الشرق الاقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعا بين المسلمين الى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمنغهام فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان

وجملة الموقف الآن أن جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الاسلام هدفا لدعوة التنصير ، وهى تنظر اليه الآن نظرتها الى منافس خطـــر فى بلاد الوثنيين من الاسيويين والافريقيين ، واذا امنت خطره فقد تستريح اليه للتعاون على مقاومة الدعوة الى المذاهب الهدامة أو مذاهب الالحاد ، وبخاصة

فى البلاد التى تصطدم لديها الكتلتان الشرقية والغربية

ويبدو لنا أن هذه الجماعات فى الشرق انما تطيل رسالتها لاستبقاء الاتاوات المخصصة لها فى بلادها ، ولو كان بقاؤها على قدر نجاحها فى التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد

ولكن هذه الجماعات التى تمدها الاتاوات والحبوس من بلادها تتخفى بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو التطبيب أو الاحسان . ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ، نذكر منها أسلوبا صغيرا اختبره كاتب هذه السطور فى تشجيع بعض ذوى الاقلام وغمط الآخرين ممن يحذرون خدمتهم الثقافية ، فلا يخفى على أحد فى الشرق العربى أن كل ترتيب للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم بين قراء العربية لابد أن يرد فيه اسم كاتب هذه السطور فى آخر القائمة على الاقل أن لم يرد فى أولها ، ولكن احدى هذه الجماعات زعمت انها تعنى بترتيب الكتب العربية التى تقرأ فى الشرق فلم يأت بينها ذكر لكتاب واحد ألفناه ، ولم تصنع شيئا بهذا السفساف الا أن تدل على النية المدخولة والتواء الاسلوب . . . ومن دلالة كهذه يظهر ماوراء هذه الجماعات من الغرض ، وان ابتعدت عنه فى الظاهر غاية الابتعاد

الدعوات ونهضات الإصلاح

الدعوات ونهضات الاصلاح

اتى على الامم الاسلامية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا

حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، وهى عدة الامم فى تنازع البقاء

والويل للأمم التى تحرم هذه العدة فى الحالتين

الويل لها اذا أحست نقصها ، والويل لها اذا غفلت عنه ولم تفطن لمصابها

فان احساسها بالنقص فى جميع هذه العدد يذلها وييئسها ويهون عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها

اما الغفلة عن النقص فهى أشد عليها من الاحساس به ان كانت هناك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، لانها تزيد عليها حرمانا آخر لا تزال له بقية فيها ، وهو الحرمان من محاولة التبديل ، ان كان للمحاولة سبيل

ويحدث فى بعض هذه الاحوال أن تتماسك الامة بعض التماسك لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ، وهى كبرياء تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخلة العارف أو أشد وأقوى

فالجنس الاصفر ينظر الى الامم الاخرى كأنها الغريب المتطفل على العالم لان أوطانها فى عرفها هى مركز العالم ومحوره ، فلا

محل فى خارجه لغير المتطفلين المشردين

والجنس الاسود يعيب على جميع الامم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسمه ، واليونان الاقدمون كانوا يحسبون الناس ماعداهم فى زمرة واحدة هى زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم أجلافا مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهم عجما ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها

وكان للأمم الاسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنتمى الى جميع الاجناس ، وقد تنتسب فى رقعة واحدة الى البيض والسود والصفر كما تنتسب الى الآريين والساميين والحاميين، واعلم من فيها يعلم أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

ففى هـــذه المحنة التى مرت بالامم الاسلامية فى عصر الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهى عصمة الدين

عصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى حرمت مقومات الحياة وعدد الكفاح فاستسلمت ويئست وايقنت أنها أقل من سائر الامم فى جميع الصـــفات وأنها محتـــاجة من تلك الامم الى كل شىء

وعصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى تجهل حاجتها وتغفل عن نقصها ، لان نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفهـــا بتبدل حالها وقبولها ماليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه

بقى لها شىء يوحى اليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل شىء بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمـــكانة السياسية

ولم يكن هذا الشىء كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية فى الانسان ، بل كان شيئا يليق بالانسان لانه منوط بأشرف مزاياه وهى مزية الضمير والوجدان

بقى لها الايمان بدينها

بقى لها الايمان بانها فى حالة لن تدوم ، وأنهـا قمينة أن تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه

ولم يزل الاسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين وعلم الدنيا ، وأن نبى الاسلام ـ فضلا عمن هو دونه ـ قد يقول لمن يهديهم أنكم أعلم بأمور دنياكم

وانحلت المعضلة الكبرى على هذه الصورة التى لا صعوبة فيها على النفس المسلمة ، ففى وسع الدول المستعمرة أن تتغلب بسلاحها ، وفى وسع الامم الاسلامية أن تدفعها بمثل ذلك السلاح اذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها

هذه العصمة هى سر العقيدة الوافية الذى تلوذ به حين تخذلها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيهـا أمة متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها الا علامة على الوهن والانحلال

ولم تشعر الامم الاسلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر الاستعمار

لم تشعر به فى عهد الحروب الصليبية لانها خرجت منها وهى مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها

ولم يكن ثمة فارق فى عدد القتال بينها وبين الصليبيين فيدخل فى روعها أنها مطالبة باقتباسه مفتقرة اليه

ولم يكن فى أحوال الصليبيين ما تغبطهم عليه ، بل كان الاكثرون منهم على حالة يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونها من التخلف والهمجية

أما صدمة الاستعمار فلم تكن من هذا القبيل ، ولم تكن بالصدمة العابرة التى تمر فى ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثرا للمتأثر ، بل كانت هى الصدمة الماثلة امام كل

نظر ، الملحة فى كل حين ، المتجددة فى كل جهة ، المعاودة على نحو واحد فى جميع الاقطار وعلى اختلاف التجارب والاحداث

وقد تقدم فى خلاصة أحداث القرن التاسع عشر أن هزائم تركيا وايران ومراكش ومصر كانت هى نقطة التحول فى تواريخ تلك الأمم ، وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحول الا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

وسيتبين من « رد الفعل » الذى أعقب هذه الهزائم أن « العالم الاسلامى » لم يزل بنية حيـــة تستجيب للمؤثرات وتستبقى منها ماصلح وأجدى

وتلك هى العلامة الصادقة على كل بنية حية

علامتها أن تستجيب للمؤثرات وأن تعالجها بما يصلح ويجدى، فلا يبقى فى البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى

ان رد الفعل الذى أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة الى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة الى البدعة التى لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة الى حفظ الاصول واقتباس الجديد على توافق واتصال . وكانت منه الدعوة الغالية والدعوة المعتدلة، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا الا ماهو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة

وسنعلم الاصلح من هذه الدعوات فى خلاصة سريعـــة لما ارادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلا له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول

الدعوة الوهابية

كان أول هذه الدعوات فى تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الذى ولد فى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة ببلد العيينة من نجد فى جزيرة العرب

وسبق هذه الدعوة فى تاريخها يرجع الى بساطة المجتمع الذى ظهرت فيه والى ابتعاده فى داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الامم الاسلامية الاخرى التى تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع

وقد ترجم له المولى محمود الالوسى صاحب تفسير روح المعانى وهو بعض مريديه فقال انه « ابن سليمان بن على ابن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد ابن مشرف بن عمر بن معضاض بن ريس بن زاخر بن محمد ابن على بن وهيب التميمى النجدى صاحب الدعوة المشهورة »

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد فى بلد العيينة من بلاد نجد فى حجر أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى فى بلد العيينة فى زمن امارة عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله ابن معمر المشهور صاحب العيينة التي تزخرفت فى أيامه ، وذلك قبل انتقال الشيخ عبد الوهاب الى بلد حريملة من بلاد نجد . فقرأ الشيخ محمد على أبيه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد فى صغره كثير المطالعة لكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينكر على أهل نجد كثيرا من الامور فلم يسعفه على ذلك أحد وان استحسن

انكاره بعض الناس ، فسافر من بلده العيينة الى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه صار الى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعة المعروفة فى ناحية سدير من نجد ، والشيخ عبدالله هو والد الشيخ ابراهيم مصنف كتاب « العذب الفائض فى علم الفرائض »

وروى الالوسى فى الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده يوما فقال له : تريد أن أريك سلاحا أعددته للمجمعة ؟ قال محمد بن عبد الوهاب : نعم . قال : فأدخله منزلا فيه كتب كثيرة . فقال : هذا الذى أعددت لها !

ثم استطرد الالوسى فقال انالشيخمحمد بن عبدالوهاب أنكر استغاثة الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم عند قبره ، ثم رحل الى نجد ثم الى البصرة يريد الشام ، فلما ورد البصرة اقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ محمد المجموعى من أعلى المجموعة محلة من محال البصرة ، فأنكر أيضا أشياء كثيرة على أهل البصرة فأحس الناس به فآذوه وأخرجوه وقت الهجيرة ، ولحق بعض الاذى بالشيخ محمد المجموعى أيضا لمؤاتاته للشيخ محمد . فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هاربا من البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير فى وقت الصيف فى شدة الحر وكان ماشيا على رجليه كاد يهلك من شدة العطش فوافاه رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجده من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله الى بلد الزبير . ثم ان الشيخ محمدا اراد السفر الى الشام فضاق زاده فانثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الاحسائى ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب قد انتقل اليها من

بلد العيينة سنة تسع وثلاثين ومائة والف ، بعد وفاة عبد الله ابن معمر صاحب العيينة فى الوباء الذى وقع بها فأفناها ، وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء العيينة وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبد الله النجدى قاضيا ، فانتقل الشيخ عبد الله الى بلد حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد الى بلد حريملة لازم أباه وقرأ عليه وأظهر الانكار على أهل نجد فى عقائدهم فوقع بينه وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس فى بلد حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفى أبوه الشيخ عبد الوهاب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف

ثم اعلن الشيخ محمد بالدعوة والانكار على الناس ، وتبعه اناس من اهل حريملة واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلد حريملة قبيلتين اصلهما قبيلة واحدة وكلّ منهما يدعى الرئاسة ، وليس فى البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لاحدى القبيلتين عبيد يقال لهم الحميان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فهم العبيد ليلا بقتل الشيخ محمد خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم ، فانتقل الشيخ محمد من بلد حريملة الى العيينة،ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر ، فتلقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال لعثمان : انى أرجو ان انت قمت بنصر (لا اله الا الله) أن يظهرك الله وتملك نجدا واعرابها ، فساعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وشدد فى النكير على الناس فتبعه بعض أهل العيينة وقطع اشجارا كانت تعظم فى تلك النواحى وهدم قبة قبر زيد ابن الخطاب رضى الله عنه عند الجبيلة فعظم امره فبلغ خبره

الى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الاحساء والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل سليمان كتابا الى عثمان وكتب فيه : ان المطوع الذى عندك قد فعل مافعل وقال ما قال فاذا وصلك كتابى فاقتله ، فان لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا فى الاحساء وكان خراجه ألفا ومائتين ذهبا ومايتبعها من طعام وكسوة

فلما ورد الكتاب الى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل الى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا بحرب سليمان ، فقال الشيخ محمد : انك ان نصرتنى ملكت نجدا ، فأعرض عنه عثمان . وأرسل اليه ثانيا أن سليمان قد أمرنا بقتلك فى بلدنا ، فشأنك ونفسك وخل بلادنا ، وأمر فارسا يقال له الفريد الظفيرى باخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه وليس معه الا المروحة وذلك فى أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس بقتله فى الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلى سبيل الشيخ ... فصار الشيخ الى الدرعية ، وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والالف ، ووصل اليها وقت العصر فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العرينى ، فلما دخل عليه ضاقت به داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جأشه وروعه ، وقال : سيجعل الله لنا ولك فرجا ، فاستقر ، فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ الى أخويه مشارى وثنيان ولدى سعود وزوجته موخى بنت أبى وحطان من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقذف الله محبة الشيخ فى قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله، وقالت له ان هذا الرجل اتى اليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى اليك ،

فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها والقى الله محبته فى قلبه ، ورغبوا محمد بن سعود فى زيارته لعل ذلك يكون سببا لتعظيم الناس له واكرامه . فسار محمد بن سعود اليه فلما دخل عليه فى بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة ، فقال له الشيخ : وانا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد . وهذه كلمة (لا اله الا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمـــة التوحيد وأول مادعت اليه الرســل من أولهم الى آخرهم

واستطرد الالوسى الى تعاهد الرجلين على النصرة اذ قال الشيخ للامير : « أما الاولى فامدد يدك فمدها وقبضها وقال له الدم بالدم والهدم بالهدم . . . (1) وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ماهو خير منه ، اى من خراج أهل الدرعية . فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى استقامة الشعائر »

الى أن قال : « ثم امر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتثلوا أمره وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة الى أن ادخلوهم الى طاعتهم وحصلت امارة بلاد نجد وقبائلها جميعا لآل سعود بالغلبة ، وكان الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرته الى رجلين أو ثلاثة ، وفى تاريخ ابن بشر الى حمد وابنه عبد العزيز ، وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها الى من يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئا من ذلك الا بأمره . . . ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد واتسعت

(1) أى دمى دمك وهدمى هدمك . قال ابو عبيدة : « كانوا فى الجاهلية الاولى اذا تحالفوا وتعاقدوا أوقدوا ناراحتى تكاد تحرقهم . . . ويتصـالحـون عندها ويقولون الدم الدم والهدم الهدم . . . »انتهى من شرح الالوسى

بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم كل صعب فعرض الشيخ امور الناس وأموال الغنائم الى عبد العزيز الامير وانسلخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع عبد العزيز الامير ولا أبوه أمرا ولا ينفذ حكما الا بأمر الشيخ محمد ، وتوفى الشيخ المشار أليه فى سنة ست بعد المائتين والالف ، وهى السنة التى غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر واخذ اهله وكسب منهم أموالا كثيرة منها ثمانية آلاف بعير ، وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسها وقسم الباقى على جيشه »

قال الالوسى : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منها كتاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والاصولية ... واعقب أربعة اولاد كلهم من أجلة العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ على والشيخ ابراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين »

والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التى ذكرها المولى الالوسى هو كتاب « التوحيد ... حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، واكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الاحبار والاولياء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك أتخاذ الرقى والتمائم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعاذة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والاحاديث التى تحرم الاستسقاء بالانواء ، وانكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بما ورد عن مسلم : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى » (١)

(١) (يراجع كتاب التصوير عند العرب تأليف احمد تيمور باشا ص ١٣١)

ويقول النبى عليه السلام فى رواية عائشة : « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة فى تعظيم النبى عليه السلام مستشهدا بقول أنس : (ان ناسا قالوا يارسول الله ياخيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال: أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد ابن عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل »

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « اياكم والغلو فانما اهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون »

ولا آخر للمناقشات التى دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو لآية بآية او لحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الاحاديث ، فلا يعنينا هنا أن نفصلها أو نخوض مع الخائضين فى جدلها ، ولكننا نرى فى جملة ماتصفحناه من الآراء المتقابلة أن الاجماع منعقد او يكاد على استنكار البدع والخرافات التى ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذى يخرج صاحبه عن الملة . واكبر من خالف الشيخ فى ذلك اخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الالهية ، وهو لايسلم لاخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب فى غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم فى مناقشة أخيه فيقول ان من أصول أهل السنة المجمع عليها كما ذكراها « ان الجاهل والمخطىء من هذه الإمة يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين الحجة التى يكفر تاركها بيانا واضحا لا يلتبس على مثله أو ينكر ماهو معلوم بالضرورة من دين الاسلام مما أجمعوا عليه اجماعا جليا قطعيا يعرفه كل

من المسلمين » ويرى أن البدع التى يمر بها الائمة جيلا بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذى يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول فى ذلك :
« ان هذه الامور حدثت من قبل زمن الامام أحمد فى زمان ائمة الاسلام وانكرها من أنكرها منهم ولازالت حتى ملأت بلاد الاسلام كلها وفعلت هذه الافاعيل كلها التى تكفرون بها ولم يرو عن أحد من ائمة المسلمين انهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الافاعيل وان لم يفعلها . أتظنون أن هذه الامور من الوسائط التى يكفر فاعلها اجماعا وتمضى قرون الائمة من ثمانمائة عام ولم يرو من عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ ... نبهنا الله واياكم من الضلال »

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت اطباق الناس على الجهل والتوسل بما لايضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها واتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غبر على البادية زمان يتكلون فيه على التعاويذ والتمائم واضاليل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعى من وجوهه توسـلا بأباطيل السحرة والدجالين حتى فى الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية انها صرفتهم عن الوان من البدع والخرافات، ولكن المهم فى الاصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذى يوقعهم فى بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات ، وأن يكون النهى على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر ، وهذا ما بقى للزمن ان يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب

السنوسية

وتقارب الوهابية فى عصرها دعوة أخرى فى البادية هى السنوسية التى تنسب الى السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الذى ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة١٧٨٧)

والدعوتان تتشابهان فى حماسة الدعوات البادية وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالاسلام الى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة

فليست السنوسية مذهبا ولا نحلة ولا نقضا لمذهب من المذاهب وانما هى « أخوة » فى الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند أتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الاخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات فى غير العلم والاخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط فى درجاتها العليا أن تنحصر فى البيت السنوسى بل يكون منهم الاقرباء وغير الاقرباء

والسنوسى مجتهد ولكنه يتبع مذهب الامام مالك الا فى القليل الذى صح عنده أنه اقرب الى السنة ، ولا يتصدى بالنقض لاحد من الائمة بل كان أبغض الاشياء اليه ــ كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشى فى رحلته ــ أن يسمع مقالة السوء فى امام أو غير امام ، وقد تعرض للقتل من جراء اجتهاده وألمع الاستاذ الامام محمد عبده الى ذلك فى كتابه عن الاسلام والنصرانية اذ يقول : « الم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى

كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على اصول المالكية وجاء فى كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى مايخالف رأى مجتهد او مجتهدين فعلم بذلك احد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الازهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين وتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة او لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة »

□

وقد اجتهد الشيخ فى مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث فى بلده وفى مراكش ولقى العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق فى المغرب والمشرق ، ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التى كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحة جغبوب وبنى بها مسجدا ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا فى أرجاء العالم الاسلامى فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطرابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا فى كتاب « سنوسى برقة » الذى ألفه برتشارد Pritchard على أسماء مائة وست واربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون شيوخ هذه الزوايا مرجعا لاتباعهم فى أمور الدين والدنيا يرشدونهم الى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ، ويكفونهم عن الشر كما قال ابن مقرب :

فكم من حريم قد أباحوا واجحفوا
بمال غنى لا يخافون عاديا

فأرشدهم للرشد من حل بينهم
فلا زال مهديا ولا زال هاديا
وكم بدوى فى الفلا خلف ناقة
« يجول » على الاعقاب أشعث حافيا
تلقاه فى مهد الضلالة هاويا
فأصبح نجما فى الهداية عاليا
وكم من جهول أسود اللون خلقة
كساه لباس العلم أبيض صافيا

ولا تبيح السنوسية الغلو فى تقديس المشايخ الاحياء أو الاموات ، ولا تأذن لاتباعها أن يذكروا ميتا عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه ، ولكنها لا تمنع اللياذ بالمقامات للعظة والتبرك . وشرعتها فى ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من عهد الاندلس فأرادت أن تجددها ولا تشمر أهل الصحراء بالتقحم عليها

وكان الشيخ السنوسى ـ بخلاف الغالب على مشايخ الطرق ـ خبيرا بأحوال السياسة العالمية فوقر فى ذهنه أن النابلطان أى الايطاليين مغيرون لا محالة على برقة فى يوم قريب فأوغل بمقامه الى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ويهيىء فى جوف الصحراء ملاذا لمن تقصيهم غارات المستعمرين عن السواحل ومدن الحضارة

وتوفى الشيخ سنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبوب حيث بنى مزاره الكبير وخلفه على امامة الطريقة ابن أخيه السيد أحمد الشريف

وقد كان أثر الطريقة السنوسية فى المغرب والسودان والصحراء الكبرى أثرا صالحا فى جملته وشهدنا ما لابناء الشيخ وعشيرته من السلطان الروحى بين أهل البادية فى رحلتنا الانتخابية يوم كنا نرشح للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا

السلطان مالم تبلغه القوة ومخافة السطوة ، وحدث مرة أن واحدا من أصحابنا ألقى على جمع من البدو الى جوار بيت السيد السنوسى بمرسى مطروح أكوابا من الورق المقوى لشرب الماء فتهافتوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم بالحسنى ، فما هو الا أن نهض السيد ابراهيم وناداهم الى قراءة الفاتحة حتى تركوا ماهم فيه جميعا وقاموا يتبعونه فى تلاوتها ثم أومأ اليهم فانصرفوا بسلام

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحى ينبسط الى جوفها الاقصى ويهدى أبناءها مع حسن التعهد والقوامة الى سبيل الصلاح والتعمير



طرائق أخرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حركات كبيرة أكثرها من قبيل الطرائق و « الاخوات » التى تنشر الزوايا والخلوات فى البوادى الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنها طرائق تضارع فى كثرة أتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الاسلامية التى لاترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر فى بيئاتها التى تلائمها ، فليست هى من قبيل رد الفعل للعوارض السياسية أو الاجتماعية التى أصابت الدول الاسلامية فى القرون الاخيرة ، لان أمثالها من حركات الاعتكاف قد ظهر قبل ستمائة سنة وشعاره الغالب عليه « دع الخلق للخالق » بخلاف الحركات الاخرى التى تتصدى لشئون السياسة بالتأييد أو بمقاومة لهيىء العدة للمستقبل فى هذا الميدان

واكبر الطرائق التى عاصرت الدعوة السنوسية على وجه التقريب طريقتان : احداهما شاعت فى المغرب وشواطئه ثم فى السودان وآسيا الصغرى وهى الطريقة التجانية ، والاخرى شاعت فى الحجاز ثم فى مصر والسودان وهى الطريقة الميرغنية

وتنسب الطريقة التجانية الى تجان بالمغرب حيث أقام امامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذى ولد بقرية « عين ماضى » سنة ١٧٣٧ الميلادية ، وكان فى شبابه من أتباع الطريقةالشاذلية

ثم دعا الى طريقته بعد أن جاوز الاربعين ، ومن آداب هذه الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى أتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفية بمراكش ، ومنهم من بايع « محمد سعيد باشا »بمصر واعتبره من الزمرة التجانيــة ، ومنهــم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثمانى عبد المجيد ، ولـكنهم لا يقبلون الهوادة فى مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك فى ولائه أحدا غير امام طريقته كأنه قابل لان يتدرج من ذلك الى المشاركة فى ولائه لنبيه وخالقه ، وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المعدودة : « ان من اكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده الا يشرك فى محبته غيره ولا فى تعظيمه ولا فى الاستمداد منه ولا فى الانقطاع اليه ويتأمل ذلك فى شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان من سوى رتبة نبيه (ص) برتبة غيره من النبيين والمرسلين فى المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع اليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على أن يموت كافرا الا أن تدركه عناية ربانية »

ويعرف اتباع التجانية فى السودان باسم « الفلاتة » وهو الاسم الذى يطلق فى الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطىء أفريقية الغربية ، ومن أتباعها من يقيم الآن فى آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حريته فى نشر الدعوة الى شعائر الدين

ويرجع الفضل الاكبر فى انتشار الطريقة الميرغنية الى السيد محمد عثمان الميرغنى المتوفى سنة ١٨٥٣ الميلادية ، أحد تلاميذ السيد أحمد بن ادريس بالحجاز . وقد زامله فى هذه التلمذة السيد السنوسى الكبير ، وكلاهما عالم لا فقيه واسع التحصيل ولكن الميرغنى أقرب الى خلائق العزلة والتعمق فى الاسرار الصوفية ، وزميله السنوسى أقرب الى خلائق الداب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والامراء يتتبعون أخباره

ويخشون بأسه من سلطان القسطنطينية الى سلطان دارفور ، وكان المحافظون من العلية والرؤساء فى الحجاز يميلون الى الطريقة الميرغنية ويوجسون خيفة من شيوع السنوسية بين أهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التلميذان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا فى مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم

كان الشاغل الاكبر للسيد محمد عثمان فى شبابه أن يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا اليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة القادرية ثم الطريقة الجنيدية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن ادريس . وقد ندبه أستاذه للدعوة باسمه فى مصر والسودان فبرح الحجاز الى القصير وقصد الى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين . وبرح مصر من ثم الى السودان ونجح نجاحا طيبا بين أهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة ، ثم قفل الى الحجاز وواظب على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير الى يوم وفاته (سنة ١٨٣٧) ولكنه أحس العداء ممن كانوا ينافسونه فى مكة فعكف على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه فى نشر الدعوة اذ أتجه السيد محمد سر الختم الى اليمن واتجه السيد الحسن الى سبواكن فالتف به المريدون من قبائل بنى عامر والحلانقة وأكثرهم من البجاة

ولم تظهر فى العهد الحديث طريقة أكبر من هذه الطرق الثلاث : وهى السنوسية والتجانية والميرغنية ، ويستلفت النظر أن هذه الطرق جميعا تشيع بين السنيين وقلما تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة الامامية ، ولعلها بين السنيين بديل من اعتقاد الشيعة فى الامامة المنتظرة بشروطها الخاصة التى يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهدية ، وهى دعوى كبيرة يشتد الشيعة أنفسهم فى محاسبة من يجترىء عليها


المصلحون المعلمون

السيد أحمد خان

تقدم أن النهضـــة الاسلامية فى القــرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الاصلاح : اصلاح بالعودة الى القديم ، واصلاح بالتجديد ، واصلاح باحياء الحماسة الدينية ، واصلاح بمجاراة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون وأخرى يقوم بها المتطهرون المتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقوم بها المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هــذه الدعوات ــ دعوات المعلمين المهذبين ــ كانت ألزم دعوات الاصلاح وابقاها أثرا وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثا كيفما كانت أحوال الامم التى تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيها

وقد ظهرت فى أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفى الزمن الذى ينبغى أن تظهر فيه

ظهرت فى الهنـــد وفى مصر وفيمـــا بينهما من بلاد الشرق الاوسط ، وكان قادتها على هذا الترتيب الزمانى : السيد أحمد خان الهندى والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهو المصلح المخضرم بين عصر الجمود وعصر اليقظة والتقدم

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهى ولا تزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لابيه وأمه من كبـــار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد انعم عليه بهادر شاه ــ آخر ملوكها ــ بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة

والده ، ولما يبلغ العشرين

وكان التقليد المرعى بين مسلمى الهند مقاطعة الوظائف فى ظل الحكم الانجليزى ، ولكن نشأة احمد خان بين رجال الدولة رشحته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التى عرضت عليه فى سلك القضاء

وانفجرت ثورة الهند « سنة ١٨٥٧ » وهو قاض فى بجنور فحال جهده بين الثوار وقتل المسالمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه فى أسباب الثورة فيلقى تبعتها على الادارة الانجليزية ويدحض ماقيل من تدبير هذه الثورة فى بلاد الافغان بايعاز من الحكومة الروسية ، لان أسبابها الوطنية كافية لنشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل اليها من خارج البلاد الهندية

روى عن السيد احمد خان وهو طفل صغير أنه دعى مع أنداده وأهليهم الى بلاط بهادر شاه فنودى عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافأتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولاجواب ، ثم وجده رجال الحاشية منزويا فى مكان قريب فسألوه : لم لم تجب حين نودى باسمك بين زملائك ، فلم يحجم أن يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وضحك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال فى حضرة ملك ، فلم يشأ الصبى الصغير أن يتلطف فى الاعتذار ويتعلل بسبب غير هذا السبب الصحيح

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الاربعين ، فانه كاشف أبناء قومه بعلة جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتملقهم ويخفى عنهم أسباب قصورهم وعجزهم ، وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة ومايقع عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه التبعات فى رأيه أنهم

« نائمون »

وقد وصف السيد أحمد خان بالاناة والحذر، وكادالمترجمون له أن يصفوه بالمبالغة فى أناته وحذره . ولكنهم لو وصفوه بالاقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الاناة ان كان معنى الاناة أن يتخلف المستأنى عن العمل فى حينه ، فما توانى أحمد خان عن مصارحة الانجليز بتبعاتهم وعيوب ادارتهم ، وماتوانى عن مصـــارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم ، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذى يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل وتفاوت النسبة فى توزيع السكان ، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مغبة العجلة ولا يؤمن بجدواها ، وكانت هذه الاناة منه أدل على الشجاعة من الهجوم السريع ، لانه كان يغضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل فى غير جدوى

وقد عرف مكامن الضعف فى قومه ولم تخف عليه مكامن القوة فى الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدأ بارسال ابنه الى الجامعات الانجليزية واعتزم أن يصحبه اليها ليطلع بنفسه على حقائق الحضارة الاوربيـة فى بلادها ، وقد لخصـــها فى جوهرها أحسن تلخيص فجمـع حقائقها النافعة فى كلمتين : وهما العلم والخلق، ورأى أن الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين ، فلخص برنامج الاصلاح عنده فى الدين المستنير ، وجمل شعاره كله كلمة واحدة يعيدها مرات : وهى علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ثم تعلم ثم تعلم . بغير انقطاع عن التعلم أو التعليم

ولما توفى وهو فى الحادية والثمانين كان للمسلمين فى الهند مدرسة كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ماهو أهم من ذلك وألزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التى

لا تخفى على ذى عينين ، وقد خطا السيد احمد خان هـذه الخطوة التى احجم عنها معاصروه لانهم لايعرفونها ولايجسرون عليها ، فعرفها ولم يحجم عنها . وقال من قال انها لخطـوة عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا انه قد أطال الاناة فيها ، ولكنهم مجمعون على أنها هى الخطوة التى لابد منها فى البداءة ، فلا تتأتى الخطوات التالية الا بعد الاقدام عليها ، وقد أقدم عليها فاتبعه فى الطريق من يؤثر العجلة ومن يؤثر الاناة



جمال الدين

والمعلم الاكبر جمال الدين من أبناء الاقاليم الوسطى . بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكأنما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الاسلامى ويتولى فيه دعوة الاصلاح والتعليم من أقصاه الى اقصاه

والقول المشهور انه هو وآباؤه وأجداده من ابناء الافغان ، ويقال غير هذا أنه ولد بقرية « أسد اباد » فى جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل الى الافغان وتعمد اخفاء نسبته الفارسية بعد أن تجرد لدعوة الاصلاح فى العالم الاسلامى كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لانه من رعاياه ، فضلا عن غلبة المذاهب السنية على البلاد التى خاطبها بدعوته ومنها بلاد الترك ومصر وسائر البلاد العربية

الا أنه لاخلاف فى نشأته منذ صباه فى بلاد الافغان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب ابى حنيفة ودرس علم الكلام وهو خلاصة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة فى كتب الاقدمين ، وكان فى اخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلا من الانجليزية ، عدا الفارسية والعربية التى كان يتكلم الفصيح منها بلهجة الفرس المستعربين

واذا لخصت رسالة جمال الدين فى كلمتين فرسالته بالايجاز هى « الجامعة الاسلامية »

ولكن الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين شىء غير

الجامعة الاسلامية التى يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعا الى حكومة واحدة ، وانما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة أحوال الامم التى درج جمال الدين وهو يستمع الى أخبارها ويشترك فى شئونها ، وهى بلاد الافغان وايران ، وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه فى أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزمن قليل

فقد فتح السيد عينيه على بلاد الافغان وفارس وهى على أعنف مايكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهنــد البريطانية تستغل الخلاف بين الامتين فى المذهب والخلاف بينهما على الحدود كما تستغل حاجتهما الى المال والسلاح ، فتغرى احداهما بالاخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ماتقوى به على جارتها وتشترط عليها الا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها والا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح الا أن تكون الدولة المغلوبة قــد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية

وربما سكن القتال بين الافغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بايعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الافغان والفرس والترك اجمعين

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما ادرك أن العلاج السريع لهذه المحنة انما يبدأ بالتوفيق بين الامم الاسلامية وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيرا أن يرى هذه الامم كما قال : « متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين » . فعقد عزيمته على رسالة

واحدة يتحراها مدى الحياة وهى حسم الخلاف بين الامم الاسلامية وايصاد الابواب على المستعمرين والمستغلين حتى تنقطع المطامع التى تسول لهم العدوان على الامم الاسلامية وايقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها

وهذه هى الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفى سبيلها رحل الى الهند وبلاد العرب والآستانة ومصر وروسيا وفرنسا وانجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت المستشرق الايرلندى ، قاصدا الى الولايات المتحدة ليتجنس بالجنسية الامريكية ويستثير الامريكيين على الانجليز والروس ، وكان قد سمع بمساعى الامريكيين فى الشرق الاقصى فخطر له أن يستخدمها فى قضيته ، ولكنه أقام أشهرا فى الولايات المتحدة على قول مستر بلنت فعدل عن عزمه ولم يتمم ما نواه من رحلته ، ولعله عرف بالخبرة الواقعة أنه يعلق الرجاء حيث لا رجاء

وقد خطر لجمال الدين يوما ان يرسل تلميذه ومريده الشيخ محمد عبده الى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها الى خدمة الجامعة الاسلامية ، وخطر له فى مصر أن يسقط الخديو اسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على اسماعيل من يغتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعا لنصائحه ووصاياه

وقد توسل جمال الدين فى رسالته بكل وسيلة تملكها يداه فأصدر فى أوربا صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضياء الخافقين » وانشأ فى مصر محفلا ماسونيا بعيداً من سيطرة المحافل الاجنبية ، وقيل أنه ألف فى مكة المكرمة جماعة « أم القرى » وهم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم يهدأ قط فى حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الاسلامية ، واتهمه السلطان عبد الحميد بالعمل فى الآستانة

على استمالة الخديو عباس الثانى الى تنفيذ مساعيه يوم زارها فى ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به (سنة ١٨٩٧) وحظر السلطان الاحتفال بجنازته فلم يشيعه الى مقره الاخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحياة ولم تتحقق مساعيه لانها أكبر من ان تحققها جهود جيل واحد ، غير انه أحسن بذر البذور فلم تمت فى تربتها الصالحة ، وحق لمترجمه أن يقول : « ان تاريخ الشرق الاسلامى فى ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ جمال الدين »



محمد عبده

هؤلاء المصلحون الملمون الثلاثة نشأوا كنشأة الاخوة فى أسرة واحدة : ولد السيد احمد خان فى سنة ١٨١٧ وولد السيد جمال الدين فى سنة ١٨٣٩ وولد الشيخ محمد عبده فى سنة ١٨٤٩ ... وكان بينهم من التخصص على غير قصد مايشبه توزيع الوظائف فى المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذى يستطيعه حيث يستطاع ، ولم يكن للعالم الاسلامى غنى عن واحد منهم فى موضعه أو فى مهمته كما فرضتها عليه دواعى الاصلاح

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الاستاذ الامام » .. لان هذا اللقب يلخص رسالته فى الاصلاح بين زميليه أحمد خان وجمال الدين

فهو مصلح معلم كالسيد احمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالامامة الدينية التى لم يتهيأ لها السيد أحمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على ايقاظ المسلمين وتنبيههم الى حاجتهم من العلم الحديث

فالشيخ محمد عبده أستاذ امام ، ورسالته هى التعليم والامامة فى وقت واحد . وفحواها أنه خرج من تجاربه كلها بنتيجة واحدة وهى فساد الجو السياسى من حوله ، فلم يبق له أمل فى اصلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الايمان فانصرف بعزيمته كلها الى رفع

الحجر عن العقول بأجازة الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيرا يطابق العلم الحديث

وتبدو هذه الكلمات سهلة هينة لمن يقرؤها فى العصر الحاضر، ولكنه يعرف صعوبتها ـ بل خطرها ـ اذا عرف أن القول بدوران الارض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع أعداء الدين على افساده ، وأن استخدام التليفون حرج شديد لانه قد يكون من آلات الشيطان وأفاعيل السحرة «المتشيطنين» وقد بدا للأستاذ الامام عبث السياسة وهو يعاون السيد جمال الدين فى مساعيه الاوربية ، فكان يعاود له المشورة بتركها والاقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حينا بعد حين : « اننا اذا علمنا عشرة وأرسلناهم فى أرجاء العالم الاسلامى فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح فى العالم الاسلامى مائة مرشد فألف مرشد بعد ثلاثين سنة أو أربعين ، وذلك أوثق وأوفق من عملنا الضائع بين الساسة والامراء .. » وكان السيد جمال الدين يستمع اليه مرة ويحتد فى جوابه مرة اخرى فيقول له : « انك لمن المثبطين »

وقد بدأ الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الازهر ، فألقى بعض الدروس (سنة ١٨٧٩) فى دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها وألزم المقام بقريته « محلة نصر » باقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض ووكلت اليه الاشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العرابية وهو فى تلك الوظيفة، وقد اشترك فى الثورة حتى أفلت العنان من يديها فانف من خذلانها فى أحرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفى الى خارج البلاد ، فاتخذ من النفى فرصة لنشر الدعوة الى الحرية الفكرية وضاق به المقام فى بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين فى باريس ، وتعاونا معا على اصدار

صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عددا حتى ضربت حولها السدود فى البلاد الاسلامية فتعذر المضى فى اصدارها واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص الى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والانجليزية يومئذ من التنافس ، على اجتذاب أقطاب المسلمين، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة الى بيروت ليقيم فيها مشتغلا بالدراسات الادبية ، وفى هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين فى الرد على الدهريين

ثم عفى عن المنفيين فعاد الى القاهرة وتولى القضاء قاضيا فمستشارا بالمحكمة العليا ، وشغله فى وظيفته بالقضاء الاهلى ان ينظر فى اصلاح المحاكم الشرعية وفى تجديد نظام التعليم بالجامع الازهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شئونه العلمية والادارية وندب للعمل فى هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الافتاء فلم ينقطع فى هذا المنصب عن القاء الدروس بالجامع الازهر واصلاح التعليم فيه

واستفاضت شهرة الشيخ فى العالم الاسلامى من تخوم الصين ومراكش الى أفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون فى استجازة مايجوز وتحريم مايحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجمود الجامدين حائرون فيما يأخذون وما يدعون من اموال الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى « الترنسفال » التى أقامت الدنيا وأقعدتها عدة شهور، لانه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب ولبس ملابسهم ، كما أفتى بالاجازة فى أمر صناديق التوفير توضيحا للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الاسئلة تتقاطر على « المفتى » من ارجاء العالم الاسلامى فيبادر الى الاجابة عنها على مافى الجواب أحيانا من العنت والاصطدام

بجهالة الجامدين ومنافعهم الموروثة فى كل قطر من اقطار المشرق والمغرب ، ولا يغلو من يقول انه فارق الدنيا ــ وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ــ وله فى كل بلد اسلامى دليل ينير الطريق من فتاواه ودروسه وسيرته التى ارتفع بها مكانا عليا من النزاهة النادرة والخلق المتين

وعلى الجملة ينبغى أن يقال ان هؤلاء المصلحين المعلمين قد عملوا غاية مافى الوسع للاصلاح والتنبيه واقامة القدوة المثلى لمن تابعهم من المصلحين والمنبهين

الا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا ان نقول أن أعمال ثلاثة أو ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى البعيد من حث العالم الاسلامى واستنهاضه لو لم يكن لهم سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وان يكن جيشانا مبهما يتخبط بين غواشى الظلم والظلام

وفضل العقيدة هو الفضل الاكبر فى اعداد النفوس للاستماع من المصلحين والايمان بوجوب التغيير والاتجاه الى وجهته القويمة ، ومن ثم وجدت فى الحكومات الفاسدة نفسها عوامل اليقظة والانتباه الى التغيير أو الاصلاح ، فوجد فى ايران وزير كميرزا تقى خان يحاول أن يحد من سلطان الشاه ناصر الدين ، ووجد فى تركية رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا مع السلطان عبد الحميد ، ووجد فى مصر رجال كمحمد شريف واحمد رياض قبيل انفجار الثورة العرابية ، ووجد فى المغرب أمثال خير الدين ، ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لابد لها من معقبات وآثار

المهديون

من أقوى الدلائل على عمق الاثر الذى تركته ضربات الاستعمار فى أرجاء العالم الاسلامى هذه الظاهرة المتفقة التى تواترت فى تلك الارجاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة : أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه فى تلك الارجاء فلم يكن فى العالم الاسلامى كله بلد خلا كل الخلو من احداها

فكما توزع العالم الاسلامى دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الطرق الصوفية ودعوات التجديد أو العودة الى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات أخرى من نوع آخر وهى دعوات المهديين الذين زعموا انهم مبعوثون على موعد وأنهم رسل الخلاص والنجاة .. فظهر منهم من ظهر فى الهند ، وظهر منهم من ظهر فى الرقعة الوسطى من أرض فارس ، وظهر غيرهم فى وادى النيل ، ومن قبل راينا أن هذه الاقطار هى التى أخرجت العالم الاسلامى السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، واخرجت كذلك رواد السياسة والوزراء

ظاهرة تدل على قوة الاثر وتدل كذلك على حياة البنية التى تستجيب لكل فعل برده الذى يناسبه فى حينه ، وليست البنية هنا الا العقيدة التى هى مرجع تلك القوة وتلك المقاومة

والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه كيفما كان

واشهرهم فى عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا على محمد الملقب بالباب وقد ظهر فى ايران ، وميرزا غلام أحمد القاديانى وقد ظهر فى الهند ، ومحمد أحمد عبد الله وقد ظهـــر فى السودان

والغالب على اعتقاد المؤرخين أن المهـديين قوم خادعون يتعمدون الكذب فى دعوتهم ويسرون غير مايعلنون من طلب الاصلاح والعناية بشئون الدين

ولكن الكذب المحض فى أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول.. والاقرب عندنا الى المعقول فى أمرهم أنهم عاشوا فى فترة انتظار متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة « صوفية » فى أكثر الاجيال فاشرأبت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فأشفقوا أن ينكلوا عن هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا فى صدق الوعد مع العمل والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقــــدة من هواجس ضمائرهم ومما أحاط بهم من عقائد أتبـــاعهم ومن ضرورات المواقف المتلاحقة التى لا يسهل الخلاص منها ، فأسلموا انفسهم للحوادث واعتذروا لها بحسن المقصد وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج فى المكابرة والمغالطة لانه لا يأمن التراجع ولا يقدر عليه ، ومنهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين!

ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه فى البداية وأقلهم ثقة بها فى النهاية ، ولهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية فى الاسلام

(١) الباب

وأول نشأة البابية فى عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كاظم الرشتى الجيلانى ولد فى أول القرن الثالث عشر للهجرة (سنة ١٢٠٥) وتتلمذ على الشيخ احمد الاحسانى الذى ولد

فى البحرين وجال فى بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة والمتصوفة ، ودان بمذهب الحلول مع تغليبه لمذهب الشيعة الامامية الاثنى عشرية

وقد أخذ كاظم الرشتى مبادىء الفلسفة والتصوف عن هذا الشيخ الذى تنسب اليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من استاذه أن المهدى المنتظر سابح فى عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد خلافا لاعتقاد الامامية أنه محتجب بجسده الى أن يحين يوم الفرج الموعود ، وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيبوبة . فتسمى باسم باب المهدى أو باب الدين ، وقال ان المهدى انما يأتى الى الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد الاسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه عقيدة كعقيدة الحلول يزعم من آمن بها أن جسده يستنزل اليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين ... وسبقه أصحابه الى دعواه فزعموا له أنه تلبس بروح الامام على رضى الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدى الموعود ، وأنه صاحب كتاب يسمى البيان هو المشار اليه فى القرآن بقوله تعالى : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » وتلا على الناس سورا من هذا الوحى فعابوا عليه أخطاءه النحوية فتعلل لها بعلة توائم دعوته التى تحلل المؤمنين بها من قيود العقائد السالفة ، وقال ان الكلمات لما علمها الله آدم عصت كعصيانه فعاقبها الله وقيدها بقيود الاعراب ثم اذن له أن يطلقها فهى بعد اليوم فى حل من تلك القيود .. !

قال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية : ان حضرة الباب وضع كتاب البيان ورتبه على تسعة عشر واحدا وقسم كل واحد الى تسعة عشر بابا والآن نقول : ان أبواب هذا الكتاب تكون اذن من حيث

الجملة والمجموع ثلاثمائة وواحدا وستين بابا وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف (كل شيء) اذا استخرجت بحساب الجمل ، وقد خصص حضرته الواحد الاول لنفسه والثمانية عشر واحدا الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحدا ، ولما كان حاصل جمع أعداد حروف (ص) اذا استخرجت بحساب الجمل ثمانية عشر لذلك سمى أصحابه المشار اليهم حروف ص ونسب انتشار الحركة الروحية ونفخ الحياة الايمانية التى برزت وظهرت تحت ظل البيان الى تلكم الاصحاب ، ولكن حضرته لم يكمل بقلم كتابة جميع هذه الابواب وانما تمم كتابة آحاد ثمانية وتسعة أبواب من الواحد التاسع فقط تاركا كتابة البقية الباقية . ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان ويتصفح ماكتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة اتمام بقية الكتاب الى حضرة بهاء الله . وكذلك كل من طالع كتاب البيان ودرسه بامعان وسبر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى الى تشريع كامل مستقل بنفسه ولا الى أحكام قائمة على حدة دونت لتقوم باحتياجات أمة فى دورة كاملة من دورات الزمن ، وانما يفهم منه أمران : الامر الاول حل نظريات اعتقادية اسلامية ومشكلات مهمة أصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الاسلام ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم فى الرأى . مثال ذلك أن جمهورا فهموا من القيامة أنها حشر الموتى بأجسادهم الاولية بعد قيامهم من هذه الاجداث الترابية وذهب آخرون الى تفسيرها بظهور المهدى المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم الحياة الايمانية من الايمان به والايقاف بصدقه والتخلق بالاخلاق الفاضلة الالهية ، وكذلك اختلفوا فى معنى الرجعة ، فذهبت قبائل الى أنها عبارة عن رجعة الائمة السابقين بأجسادهم ولم تزل

هذه القبائل تتصور ذلك الى اليوم ، وآخرون توصلوا الى خرق حجب الظواهر واماطة البراقع عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا ان المغزى من الرجعة هو رجوع الآثار والصفات التى كانت كالمعنى الذى يفهم من قول القائل عند امتداح فتى بالشجاعة ان فلانا رجعة رستم « وهو بطل الفرس المشهور »

وفى هذه النبذة مايكفى للوقوف على نهج الباب فى تأسيس قواعده وعقائده ، وهى مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات الباطنية ومحاولات التوفيق بما هو اقرب الى التلفيق

أما فرائض البابية فالصلاة عندهم ركعتان فى الصباح ، والكعبة عندهم مسجد فى شيراز ، ثم البيت الذى ولد فيه الباب بمدينة تبريز ، والصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت ليوافق عيد الفطر يوم النوروز أول الحمل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولايجوز الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولاحرج فى شرب الشاى والقهوة ، وهذه الاحكام تسرى بعدد حروف « المستغاث » بحساب الجمل الى نيف والفى سنة ، ثم يظهر باذنه امام آخر يعيد النظر فى جملة تلك الاحكام

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدى خان فى كتابه مفتاح باب الابواب أنه « كان من جملة دعاته امراة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلمة (١) من بنات احد المجتهدين فى العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل — أى الباب — عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك . . . ولما وقعت المحاربة بين

---

(١) قال الدكتور فى التعليق على هذاان الصحيح أن اسمها زرين تاج .

البابيين وعساكر الدولة فى مازندران جيشت جيشا قادته مكشوفة الوجه وسارت امامه طالبة أعانتهم ، وفى أثناء الطريق قامت فى الناس خطيبة وقالت : « ايها الناس ! ان احكام الشريعة الاولى — أعنى المحمدية — قد نسخت وان أحكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الآن فى زمن لاتكليف فيه بشىء . . فوقع الهرج والمرج وفعل كل من النـاس ماكان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها وألبست البرقع جبرا وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذى أعد لاحراقها »

ويختلف فى نسب الباب ، ولكنه على الاشهر ينمى الى أب بزاز يسمى ميرزا رضا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم سنة ١٢٣٥ الهجرية ، ومات أبوه قبل فطامه فرباه خاله ميرزا سيد على التاجر وعلمه الفارسية والعربية واتقان الخط . اما أتباعه فيزعمون انه لم يتعلم وانما كان أميا يكتب بالهام من الله ، وقد شغل فى صباه بالرياضـات الصوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل انه كان يصعد فى بلدة أبو شهر الى اعلى البيت عارى الراس ويمكث فى الشمس فى الهجيرة الى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة اثنتين وأربعين (سنتجراد) ثم تعتريه من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة اياما على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقبى هذه الرياضات الشاقة فأرسله الى كربلاء أملا فى شفائه على أيدى الائمـة والمجتهدين ، ولكنه أمعن هنالك فى رياضاته وتراءت له الاشباح فى خلواته ، فكاشف اناسا صدقوه لانهم كانوا على رقبة الامام الموعود ، ثم استفحل امره واجترأ أتباعـه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم فى معتقده ، وهبت الثورة باسمه فى زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره على العلماء فتحرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطا فى عقله غير مسئول عن

فعله ، وأفتى غيرهم بوجوب القتل اتقاء للفتنة ، فسجن ثم قتل (فى سنة ١٨٥٠ م) وحدث عند اطلاق الرصاص عليه فى زعم البابيين أنه ظل واقفا لان الرصاص قد أصاب قيوده ولم يصبه فى مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير البابيين يقولون انه مات وألقيت جثته فى خندق فأكلتها السباع

وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى الذى نعته بصبح ازل ، فانتقل صبح أزل الى بغداد ومعه أخوه ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة الى فرقتين : تعرف احداهما باسم الازلية وتعرف الاخرى باسم البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة فى البلاد الاسلامية وغيرها ولم يبق من أتباعهما فى العصر الحاضر غير القليل

٢ ـ مهدى السودان

أشرنا فيما تقدم الى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد فى العالم الاسلامى عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق بغزوات الاستعمار ، ونضيف الى هذه العلامات علامة أخرى فى هذا الصدد نلمحها فى التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر من إخبار الدعوات والحركات العامة، وبخاصة ماكان من أخبار الثورة والتغيير ، فلم يكد داعية البابية يلقى مصرعه حتى تسامع بهذا المصير مسلمو الهند وافريقية الشرقية والوسطى على التخصيص ، وهى قديمة الصلة ببلاد ايران لاتنقطع عنها أخبارها من صدر الاسلام ، وقد ترجع هذه الصلة الى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية

ولو كان الباب قد انتصر فى معاركه مع جند الحكومة الايرانية لقد كان هذا الانتصار خليقا أن يوصد الطريق على من يطمحون الى ادعاء المهدية بعده ، ولكن خذلانه على نقيض ذلك قد فتح الطريق فى الهند وافريقية ومواطن شتى لمن يطمحون الى نصيب

يكون خيرا من نصيبه ، ويؤمنون فى سريرتهم بصلاحهم وصلاح أوقاتهم للقيام بالرسالة المهدية

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب « محمد أحمد » الذى اشتهر باسم المهدى السودانى ، ويلفت النظر فى هذا المقام أن دعوته الاولى كانت باسم الامام الثانى عشر الذى يترقبه الشيعة الاماميون ، وقد نشأ بين أهل الطريق وقرأ أشراط الساعة فى كتب محيى الدين بن عربى واطلع على قول ابن حجر والسيوطى ان من هذه العلامات خروج صاحب السودان ، ولم يكن فى السودان يومئذ من يشك فى اقتراب الساعة لسوء الحال وشيوع الفساد واجتراء المفسدين على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية فى ايران تهيأت الاذهان فى البلدان الاخرى لقبول دعوة غيرها يكتب لها النجاح ، ووافق ذلك سخطا عاما بين كبار الزعماء الذين كانوا يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين ارهقتهم الضرائب وبين التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع المنازعات بين مصر والسودان والحبشة فتهيأت العقول للاصغاء الى دعاة الاصلاح او دعاة التغيير كيف كان

وينتسب المهدى الى الحسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ، ويقال ان اجداده الاقربين اقاموا باقليم المنيا زمنا بعد مقامهم الى جوار الفسطاط ، ثم انتقل بعضهم الى بلاد النوبة ، ثم استقروا فى دنقلة ، ثم انتقل ابوه عبد الله الى الخرطوم فعمل فيها بصناعة السفن وتوفى بقرية كررى الى جوار أم درمان .

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة (سنة ١٨٤٥) وفى مكان مولده خلاف ، الا انه على القول الاشهر قد ولد بجزيرة لبب ومات ابوه وامه وهو صغير

ودرج الطفل الصغير فى موطن يكثر فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير فى يتمه وفى المشابهة بينه وبين النبى عليه السلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فمال الى النسك والعبادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفا من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصارمة فاجتنب الملاهى وحرم على نفسه مايستباح من غشيان مجامع الطرب والغناء وكانت صرامته هذه مثار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لانه سمح لتلاميذه ومريديه بالغنــاء والرقص فى الاحتفال بختان أبنائه ، فأنكر عليهم محمد أحمد هذه المجانة . . وغضب عليه أستاذه ففارقه ولاذ بشيخ آخر من شــيوخ الطريق بجزيرة أبا الى أن استقل بالمشيخة وناهز الاربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التعايشى من المشتغلين بالتنجيم فطابق ماعنده من علامات الحروف والحساب على ظهور المهدى وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدى الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء فى بعض النبوءات .

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حملة هكس وهى حملة لم يكن لها نظام ولا مدد من الذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافا من المجندين المرفوضين فى القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن ارسال المال اللازم والعدة الضرورية لتسيير الحملة الى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل لقائدها غير اربعين الف جنيه من المــائة والعشرين الفا التى طلبهــا ، وأبرق اللورد جرانفيل من لندن الى القاهرة فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٨٣ م يعلن : « أن حكومة جلالة الملكة غير مسئولة بحال من الاحوال عن حملة السودان التى تولتها الحكومة المصرية بأمرها ولا هى مسئولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله » ونشب الخلاف بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف

فى وقت واحد بعد أن تسامع أهل السودان جميعا بتأهب الحكومة لتجريد حملتها منذ عدة شهور ، واستبد هكس برأيه فى اختيار الطريق مع ندرة الماء وارتياب الخبراء بأمانة الادلاء ، فوقع الجيش فى كمين بعد كمين ثم فوجىء بضعفى عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش والجوع والتعب فلم يفلت منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد الدراويش أكثر من عشرين ألفا قتل منهم بضع مئات وبلغ القتلى من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف

كانت هذه الكارثة ذريعة لاكراه الحكومة المصرية على اخلاء السودان ، فانحصرت القوة التى رفضت الاخلاء بقيادة جوردون فى مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذا لسياسة الاخلاء وتمهيدا لاعادة فتح السودان باسم جديد ، واضطرت المدينة بعد اليأس من النجدة الى التسليم

وقد تقدم أن القوم عاشوا ردحا من الزمن يترقبون ظهور المهدى المنتظر ويتخيلون انهم يلمسون حولهم أشراط الساعة من عموم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الايمان ، وقد شهدوا انتصار صاحبهم على الجيوش التى حسبوها من قبل قوة لاتغلب فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دعواه ، ومن بقى من دهمائهم منكرا لهذه الدعوى فانما كان ينكرها لانه يأتم بامامة لا تقبلها ولا تقول فى علامات المهدية بقولها ، ومنهم أتباع الميرغنية والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع الى فتاوى العلماء خارج السودان بانكار هذه المهدية

ويبدو أن صاحب الدعـوة قد توطدت فى نفسه الثقـة برسالته مما عاينه حوله من دلائل الايمان به وانتظار الفلاح على يده ، فأكثر من كتابة الكتب الى الامراء والملوك يدعوهم الى تصديقه وينذرهم عاقبة الكفر به ، وأشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحرم الذهاب

الى الحج وأقنعهم بكفاية الحج الى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته قوله فىمنشور عام : « ... اخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لى على المهدية علامة وهى الخال على خدى الايمن ، وكذلك جعل لى علامة اخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة الا خذله الله ... هذا وقد اخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله ، كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدية فقد أخبرني به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حالة الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولاسكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل اقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر فيما أمر به والنهى عما نهى عنه ... وليكن فى معلومكم انى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حسنى من جهة أبيه وامه ، وامى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ... والعلم لله ان لى نسبة الى الحسين .. ! »

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته « .. ان النبى صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لى وهو منى وأنا منه فاطيعوه ما اطعتمونى .. أستغفر الله »

(٣) القاديانى

كان من أسباب ذيوع الاخبار عن مهدى السودان فى البلاد الاسيوية ، ولاسيما الهند والصين ، انه هزم القائدين هكس وجوردون ، وكان اولهما من قواد الجيش الانجليزى الذين

اشتركوا فى قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ وثانيهما من الضباط الدوليين الذين اشتركوا فى تدريب الجيش الصينى على النظام الحديث وقمع الثورة على حكومة بكين

فلما قتل هكس وجوردون فى حروبهما مع مهدى السودان طارت الانباء بوقائعه الى كل مكان ، وخشيت الحكومة البريطانية عاقبة الايمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة فى الهند ـ فكان هذا على الارجح باعثا من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية عسى أن يكون الايمان بصاحبها ميرزا غلام احمد صارفا للقوم عن تصديق المهدى السودانى ومعززا للعقائد الحديثة التى كان يبثها بين أتباعه وقوامها اسقاط فريضة الجهاد بالسيف وايجاب الجهاد بالاقناع والبرهان

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان من أسرة عريقة آلت بها الحال الى الخمول والفاقة بعد الثورة، فتعلم فى مكتب القرية وعمل فى وظيفة حكومية صغيرة ، وشب وهو يسمع الاقاويل عن كرامات أبيه ومنها انه كان يعرف المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه ، وقد سمى أبناءه جميعا بأسماء النبى وألقاب الامراء ، فمنهم سلطان احمد ومحمود وبشير أحمد وولى الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى بعدة أسماء من اسماء نساء آل البيت

نشأ الغلام منقبضا عن الناس جانحا الى العزلة ومطالعة الاسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الاديان الاخرى وقد لقى فى سياحاته من انباه بموافقة أحواله وأحوال زمنه لعلامات المهدى المنتظر وجعل من هذه العلامات خسوف القمر وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علاماته على الكتب الاسلامية بل ذكر منها ماجاء فى الاصحاح الحادى والاربعين من سفر أشعيا ، وفى « الجاماسبى » من كتب المجوس ، فلما حدث

الخسوف والكسوف فى شهر رمضان (سنة ١٨٩٤) الميلادية كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهانا من الله على أنه هو صاحب الزمان الموعود

وقد زعم أنه المسيح المنتظر والف كتابا سماه « البراهين الاحمدية ، على حقيقة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية » وفسر ظهور المسحاء الذين يظهرون بعد الاسلام بأنهم هم الاولياء ورثة الانبياء ، وقال أنه محدث . ولم يثبت أنه ادعى النبوة وانما دعواه على قول الاكثرين من أتباعه أنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء فى باب ازالة الاوهام « لا ادعى النبوة وما أنا الا محدث » وقال فى منشور ابريل سنة ١٨٩٧ « لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد »

ومدار الرسالة القاديانية كلها على التوفيق بين الاديان وتدعيم السلام بين الامم ، وفى كلام القاديانى مايشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفى سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه الى فريقين : فريق يسمى الاحمدية وهم الذين يؤمنون بامامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته وحجتهم التى يقابلون بها عقيدة الاسلام فى ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التى وردت فى القرآن الكريم انما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة . . وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبثين بقراءة حفص عن طريق عاصم ، ولكن الفرقة الاخرى تورد من كلامه مايبطل دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه فى حقيقة الوحى ونصه بالعربية « . . وما عنى الله من نبوتى الا كثرة المكالمة والمخاطبة ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو حسب نفسه شيئا أو أخرج عنقه من الربقة النبوية ، وان رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس

من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقى بعده الا كثرة المكالمة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة ... »

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت اقرب الفرقتين الى هوى الدولة البريطانية ، لانها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط الطاعة لها على من يدخلون فى زمرتها ، وقد كتب أحدهم فى كتاب فارسى باسم « تحفة شاه زاده ويلز » يقول فيه وهو يدعو ولى العهد الى الاسلام : « ... ان هذه التحفة تقدم اليك من الجماعة التى صبرت على مصائب شتى ثلاثين سنة أو أكثر على أيدى أعدائها وذويها من جراء ولائها لجدتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الامبراطور السابق ادوارد السابع ثم والدك الجليل الامبراطور الحالى ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية ومازال منهج هذه الجماعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنكب عن جميع أنواع الفتنة والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضع شرطا من شروط المبايعة التى لا تسمح لاحد أن ينضم اليها الا على عهد العمل بها وهو أن تطاع الحكومة القائمة »

ويعتذر أصحاب هذه السياسة بزعاية الضرورة والتوسل بسلطان الدولة الى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من اتباع القادياني انفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعاة الى نصرة الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسى أثره الاكبر فى تفرق اتباع الطائفة الى أكثر من فرقتين ، على كونهم جميعا لايزيدون على مائة الف أو نحوها ، ولهم مع هذا التفرق ايمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها فى العالم بمختلف اللغات

تعقيب

أولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية فى عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم فى بلادهم من دواعى الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذى توارثوه من أسلافهم ، والتربية التى هيأت أفكارهم وعقائدهم ، فهم أبناء ماضيهم وحاضرهم فى مواضع الشبه بينهم ومواضع الخلاف ، ولا يلوح لهم فى الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الاسلام غير ما انتهوا اليه

ونحن كلما أمعنا فى استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من احوال زمانهم ــ بدا لنا أن التاريخ يظلمهم اذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فانهم على الاغلب الاعم من ظواهرهم مسوقون الى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا اليها وهم مؤمنون بها ثم دار بهم دولاب الحوادث دورته التى لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه واصبح الرجوع عن الدعوة بعد ذلك أخطر عليهم وعلى اتباعهم من المضى فيها

يفيض العصر الذى ينشأون فيه بحوافز الترقب والامل واليقين بالتغيير الذى لامحيص منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم فى الصورة التى يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم

وبين هذه الهواجس والقلاقل تنمو النفوس القلقة المتشوفة

فيتفق حتما لزاما أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على استطلاع خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه ، فيخطر له أنه مندوب لامر جسام يروقه أن يصبح أهلا له ويخيفه أن يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفا من تبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن الخاطر منه وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد ويجلو له حقيقة الامر الذى هو فى ريب منه . واذا احتجبت عنه آيات الالهام فترة فليس بالعجيب فى هذه الحالة بين الامل والخوف أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث بها ويستصعب اهمالها ، وما أسرع النفس الى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أمثال هذه المآزق والأزمات

ثم يخطو الخطوة الاولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه الى مابعدها ، ثم تدفعه المصادفات تارة وتصده تارة حتى يتوسط الطريق وتنسد وراءه شيئا فشيئا منافذ الرجوع ، أن فكر فى الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى اليه امرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى اليها ، فان خامره شك فلعله يحسب فى هذه المرحلة أن المصلحة فى التقدم أكبر واضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه انما يريد الخير ولا يحاسبه الله الا بما نواه

على أن العبرة من هذه الحركات جميعا ان ضجتها أعظم جدا من جدواها ، وأنها تجشم الامم كثيرا ولاتنفعها ببعض ماتتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنجلى الغاشية وقد حبطت الحركة فى أول اغراضها واضافت نحلة جديدة الى النحل التى ارادت أن

تمحوها وتدمجها فى كيانها ، وقد تنشعب الحركة شعبا شتى بين أتباعها ومريديها وهى لم تتحرك أول الامر الا على أمل التوفيق بين النحل التى تنازعت ضمائر الناس قبلها

ولو وضعت كل هذه الدعوات فى الميزان لرجحت عليها جميعا دعوة التعليم والتقويم وهى أقلها ضجة وأطولها أمدا وأبقاها ثمرة .. ففى كل ما أجملناه من الدعوات ونهضات الاصلاح لم ينتفع الاسلام بمنفعة محققة أثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المكين ، ولم يخدم الاسلام أحد فى العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم فى النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من اصحاب الطرق المخلصين

وخير خدمة للاسلام تجلت لنا فى ضوء تجاربه من مطلع القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين هى الخدمة التى تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولايتخلف عن عصره فى علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، أو هى خدمة التوفيق بين الدين وعلوم التقدم ، وغاية مانلاحظ على اساليب التوفيق اننا لا نستصوب التعجل بتفسير الكتاب على الوجوه التى تتراءى لاول وهلة من نظريات العلم وفروض العلماء المحدثين ، لان النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى فى كل حقبة على غير صورتها فى الحقبة التى تسبقها أو التى تليها ، ومثال ذلك تفسير السماوات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، وقد ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنوات أن السيارات والنجيمات عشر ولاحصر للشهب الصغار التى تشرق وتغرب فى هذا المدار

وعبرة الدعوات جميعا منذ أواسط القرن التاسع عشر انها تنحصر فى كلمتين قال بهما رائد الهند وامام مصر ، وهما العلم والايمان

الدعوات ونهضات الإصلاح

في منتصف القرن العشرين

تتعدد المقاييس التى يقاس بها تقدم الامم ، ويأتى فى طليعتها مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية

وبهذه المقاييس جميعا تبدو دلائل التقدم على الامم الاسلامية عند المقابلة بين ماكانت عليه فى منتصف القرن التاسع عشر وما صارت اليه فى أواسط القرن العشرين ، وتبدو هذه الدلائل كذلك بارزة بينة عند المقارنة بين ماهي عليه الآن وبين ماكانت عليه فى أوائل القرن منذ خمسين سنة

فالمسلمون الذين يعيشون فى بلاد مستقلة أو شبيهة بالمستقلة ، يزيدون على خمسة أضعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم دولة اجنبية

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعى أو الشكلى فمن الغباء أن يقال ان الاستقلال كعدم الاستقلال كائنا ماكان ، ومن الحذلقة أن يستشهد على ذلك بخضوع الامم المستقلة كثيرا او قليلا لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطرار

فالصبى القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد لا يفعل كل مايريد ولايزال فى حياته الراشدة خاضعا لذوى السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطرار ، ولكن لايقال من أجل هذا أن الصبى والرجل الراشد سواء لانهما ، كليهما ، لايعملان كل مايريدان

وقد خرج معظم الامم الاسلامية من ربقة السيادة الاجنبية وأصبحت لها مشيئة الى جانب مشيئة الاقوياء . او اصبح

الاقوياء مضطرين الى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين ، وهذه خطوة فى الطريق لابد منها قبل مايليها من الخطوات

اما الامم التى لاتزال خاضعة للسيطرة الاجنبية ففى كل منها نهضة قومية ووعى متيقظ يقلق المسيطرين عليها ، وتنبئنا حوادث الماضى القريب ان السيطرة ترجع الى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة بعد المسير ولو الى غير شوط بعيد

فى آسيا

فى آسيا ظفرت اندونيسية باستقلالها ولا تزال امامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الامية وحاجة الامة الى الخبراء الكثيرين فى الادارة وتدبير الثروة وانفصال بعض اجزائها وتنازع الآراء والاحزاب على سياستها

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسى ولاتزال امامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها تباعد شطريها وحاجتها الى موارد الماء فى كشمير ، وخلافها مع الهند ومع الافغان

وفى الصين عشرات الملايين من المسلمين متيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم اوطانهم ، وتقوم الافغان وايران مستقلتين الى جانب هذه الامم وفى كل منهما كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة

ولا خطر من جميع هذه المشكلات

ولن يجىء اليوم الذى تستريح فيه الامم من امثال هذه المشكلات او تعيش فيه حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة او صغيرة

انما الخطر الاكبر امة بغير ايمان وبغير معرفة ، فاذا بقي

للأمة ايمانها ومعرفتها فكل ما أصابها بعد ذلك هين مأمون العاقبة بعد حين

وليس الخطر كله من الاعداء ، وليس الامان كله من الاصدقاء أو الابناء

فقد يجيء الخطر على الايمان من غلاة التجديد ، وقد يجيء الخطر على المعرفة من غلاة الجمود ، وقد يتقابل هؤلاء وهؤلاء على قوة واحدة فيسرى الى الامة شلل لا تنفع معه معرفة ولا ايمان

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجسام التى تستقبلها الامم الاسلامية أنها لاتحمل العبء كله ولا تنفرد بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لان سنن الحوادث أن تأتى بالنجدة كما تأتى بالعقبة ، وأن العامل لاييأس من مفاجآت الغيب وان كان لايأمن الغدرات من تلك المفاجآت

لقد كان على أندونيسية شوط بعيد مع هولندة وشبكة الاستعمار التى تمكن لها فى مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندة باليابان فأخرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهة وتركت سلاحها للثوار فى سبيل الحرية ، ثم اضطر المنتصرون من الامريكيين والانجليز الى مداراة الشعوب الآسيوية ونفس بعضهم على بعض أن تخلف هولندة على تلك الغنيمة الضخمة ، فاذا بالاستقلال يسعى الى أندونيسية كما سعت اليه ، ثم تبقى الكفاية لمشكلات الحكم والمعيشة وهى لاتعضل قوما كأبناء تلك الامة كادوا أن يستأثروا بالتجارة والملاحة فى بحار الهند قبل زحف المستعمرين عليها

وكان على الباكستان شوط بعيد مع الدولة البريطانية والكثرة البرهمية ، ثم تغير الموقف فى القارة الآسيوية بعد هزيمة اليابان وبعد كساد التجارة البريطانية فى الشرق وبعد التزاحم الجديد بين الروسيين والامريكيين على القارة فى شرقها

الاقصى ، فاذا بالاستقلال يسعى الى الباكستان كما سعت اليه ، ثم تبقى مشكلة كشمير وتبقى بازائها صناعة فى الهند تتوقف على الباكستان ، وصناعة فى الباكستان تتوقف على الهند ، ومصلحة مشتركة تلجىء الجانبين الى المصالحة ، وخطر من جانب الصين الشيوعية يفتح الاعين هنا وهناك

وثمة عامل جديد فى سياسة الدول القوية لم يكن له خطر قبل منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة فى المجتمع

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالى شيئا بعد غلبتها العسكرية والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة . ولكنها اليوم تبالى مايعتقده الشعب وتعلم أن هذه العقيدة عامل هام فى الترجيح بين المستعمرين من كتلة المشرق وكتلة المغرب .. وقد تعودوا المبالاة بالاسلام وماتحتويه عقيدته من المقاومة أو المسالمة للمذاهب الاجتماعية ، فليست السطوة بقوةالسياسة أو بقوة السلاح هى كل ماتباليه الدول الكبرى فى منازعاتها ، وقد يخافون من هذه السطوة أن تدفع بالمسلمين الى جانب وتصرفهم عن جانب ، فيبنون علاقاتهم بهم على هذا الاساس

والفرق بين الكتلتين أن الامريكيين والانجليز لايستطيعون أن يجعلوا الامة المسلمة أمريكية أو انجليزية . أما الكتلة الشرقية فاذا جعلت أمة من الامم شيوعية لم تكترث بعد ذلك بجنسها وعقيدتها ، لان الشيوعية تبطل الاوطان والاديان

دولتان قديمتان

وفى آسيا دولتان قديمتان هما ايران وتركية ، وكلتاهما فى شقة الصدام بين الكتلتين ، يحميهما هذا الصدام أن تقعا فى قبضة هذه أو تلك ، ولكنها حماية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلابد من سند لها فى بنية الامة ، ولابد من قيام هذا

السند من الايمان والمعرفة

ويقال اليوم ان تركية تعود الى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على تقاليدها الدينية ، ولكن تركية فى الواقع لم تفارق الدين حتى يقال انها تعود اليه ، وكل ماحدث انما هو تغيير فى مراسم الحكم لم يتغلغل قط الى ضمير الامة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليد الجامدين إصلح لتركية من أيام الخلافة المتداعية وأيام الثورة الكمالية الاولى

أما الامم العربية فقد وضع لها الغرب اسفينا فى صميم بنيتها يوم اقيمت بينها دولة اسرائيل ، ولن تؤمن العقبى ما بقى فيما بينها هذا الصدع الوبيل تتسلل منه المفاسد والمطامع الى جوفها

ولكن اسرائيل على قوة الدول التى تسندها لا تعيش ولا تتمكن فى موضعها بين امم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ، وباب الامل فى هذا الجانب ان المصير لايعدو حالة من حالتين : أما ان تسيطر اسرائيل على أمم العرب ونهضتها ، وأما أن تنخذل دون هذا المطلب العصى فتنهار أو تقبع فى أضيق حدودها ، وأصعب هاتين الحالتين سيطرة اسرائيل على أمم ناهضة تتقدم ولاتنكص على أعقابها

فى أفريقــــا

والاسلام فى القارة الافريقية يشغل شواطئها على البحرين الابيض والاحمر وعلى المحيطين الاطلسى والهندى . فكل الشواطىء الافريقية يقطنها مسلمون ماخلا الجانب الغربى الى الجنوب ، ويتخللها المسلمون فى جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها فى أواسطها من السودان الى أعالى النيل

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الافريقية فى الوقت الحاضر ، فعلى الاسلام عبء كبير ينهض به فى وجــه هــذا الاستعمار

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة فى هذه القارة فليس السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل هو من يقدر على البقاء بعد طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لايقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون. ويزول أبناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجوا أبناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم فى غمارهم افريقيين « مغتربين »

وقد تطول المسافة على الشعوب الافريقية قبل بلوغ المرحلة التى تخرج الاستعمار ، ولكن الاستعمار يحمل من جرائيم الفناء مايعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى الافريقيون والمستعمرون فى العلم والثروة والحول والحيلة ، وانما اللازم ان يضيق المستعمرون بقهر الافريقيين

ومصر ــ فى طليعة الامم الافريقية ــ تمضى قدما الى هذه المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين . فلم تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة الى حالة أفضل منها ، فخرجت من السيادة العثمانية ثم خرجت من الحماية البريطانية ثم تخلصت من حكم الملكية الرثة التى صار بها الزمن الى أسوأ أطوارها فى عهد فاروق ربيب الفساد ، واذا اطردت مراحلها عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء فى مرحلتها التى تقود فيها القارة الافريقية ببعيد

وعلى شواطىء البحرين الابيض والاحمر امم من هذه القارة تتيقظ وتتحفز وتوشك أن تبلغ المرحلة التى تعنت فيها الاستعمار كما يعنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادى النيل ، وأيا كان مآل هذه الآمال فى عالم السياسة فمناط الامر كله أن يتم لها حظ الامم المستقلة فى المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك مرضى ومقبول

فى نظر الغرب

منذ القرن الاول للهجرة لم يعرف العالم حقبة من حقب التاريخ خلا فيها الغرب ممن يهتمون بالاسلام على نحو من الانحاء ، ولكن الذى يعنينا فى هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالاسلام فى عصر الاستعمار ، وقد كان على الاغلب اهتماما يروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، فلم يهتم الغرب بالاسلام قط من وجهة نظر عامة أو من وجهة نظر علمية فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، وانما التفت الغربيون الى دراسة الاسلام من هذه الوجهة ــ وجهة النظر العلمية ــ منذ أوائل القرن العشرين ، وهى مع هذا لاتخلو من غرض وان تخفى الغرض فيها أحيانا وراء نقاب

فمن أواخر القرن التاسع عشر الى اليوم تقوم الجامعات والمعاهد فى هولندة وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة لدراسة أحوال المسلمين وأسرار العقيدة الاسلامية على أضواء العلم الحديث ، وينشىء بعض الجامعات كراسى لهذه الدراسة أو قاعات لالقاء المحاضرات وانتداب المختصين لالقاء سلاسل من هذه المحاضرات سواء كانوا من الاساتذة فيها أو ممن يعلمون فى الجامعات الاخرى

وسنجمل فى هذا الفصل أقوالا متفرقة من مباحث المختصين الذين صوروا الاسلام للغرب كما فهموه ، فاننا اذا عرفنا كيف

يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء.

□

افتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الاسلامية منذ نحو خمسين سنة (١٩٠٦) فحصر المحاضر الاول ـ دنكان بلاك مكدونالد ـ أهم الموضوعات التى يمكن أن يدور عليها البحث فى ثلاثة ، وهى الشخصية المحمدية ، ومدارس التصوف ، وأطوار الامم الاسلامية فى حركة التجديد

وصفوة ما انتهى اليه فى هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية المحمدية لاتزال بعد أربعة عشر قرنا مصدر المدد المتصل فى تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفسا للعقيدة الفردية التى يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ وسلطان الجماهير ، وأن أطوار المسلمين تختلف اختلافا لابد منه بين أناس ينتمون الى كل جنس وكل أصل من الاصول البشرية ، ولكن الاسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير فى أتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الدينى والحياة الدينية فى الاسلام » (١)

ومن الدارسين لموقف الاسلام فى القرن العشرين المؤرخ الكبير أرنولد توينبى Toynbee فى محاضراته عن « العالم والغرب » التى ألقيت سنة ١٩٥٢ وفى محاضرات أخرى عن حركة التجديد التى سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة لها التى سماها بالآسية

وعند توينبى أن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الاسرائيلى حضارة رومة واليونان قبل ألفى سنة ، ولا يعنى بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعنى به أن من المسلمين من يقاوم الحضارة الاوربية بالاقتباس منها كما فعل

(1) The Riligious Attitude and Life in Islam by Macdonald.

هيرود في عصر السيد المسيح ، ومنهم من يقاومها بالمحافظة الشديدة والاصرار على القديم بنصه وحرفه

وقد ذكر الانقلاب التركى وما تلاه من الحركة الكمالية نحو الغرب ، فقال ان التجديد التركى قد تطور هذا التطور لان التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على اثر الهزائم المتوالية التى منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ العسكرى بعد الهزيمة الاخيرة فى الحرب العالمية الاولى . ثم قال ما فحواه أن النظام العسكرى قد اقترن بالنظام النيابى الذى علقت جذوره على مايظهر بالتربة الاسلامية ، وفضل العقلية الاسلامية على العقلية الاوربية فى أخوة الدين . فانها فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات قمينة أن تحشد الاسلام صفا واحدا أمام غزوات الشيوعيين ، وقد نوه بالرسالة التى تؤديها اللغة العربية فى هذا الموقف وهى لغة الكتابة على اختلاف اللهجات بين مراكش وايران ومسقط وزنجبار

□

وصنف الاستاذ جب Gibb استاذ العربية بجامعة اكسفورد عدة رسائل تدور بالتفصيل أو بالاجمال على هذا الموضوع

وملاحظته الاولى هى أن التجديد فى الاسلام يبدأ من جانب « العلمانيين » أو الدنيويين خلافا لتجديد الغرب الذى يتولاه رجال الدين ، وأن المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الامام محمد عبده لتسويغ جهودهم التى لايرضى عنها الجامدون كلما حاولوا التقريب بين الاسلام والحضارة الحديثة ، وتعليل ذلك عنده أن المسلم المتعلم على المنهاج الاوربى هو الذى يعرف مايستفاد من علوم الغرب وحضارته ، وهو منهاج لم يفتح أمام الشيوخ قبل الجيل الجديد

ويرى الاستاذ جب أن التجديد ينتشر فى العواصم وقلما

يسرى الى الاقاليم النائية فى جوف البلاد

ويلاحظ أن المجددين فى مصر قد يتأولون الاحاديث النبوية ولكنهم لا يجترئون كما اجترأ بعض مجددى الهند على المناقشة فى التنزيل ولاسيما المناقشة حول تنزيل القرآن بلفظه أو بمعناه ، ولم يعلل الاستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له أمثلة كثيرة فى الهند أو غيرها ، ولكننا نظن أن خاطر التنزيل بالمعنى انما يخطر لمن يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو يترجموا هذا المعنى مع قراءته بالحروف العربية ، وقليل جدا مع هذا من يعلق التجديد بهذا الضرب من التأويل

□

وممن ألفوا عن الاسلام فى الهند خاصة الاستاذ ولفرد كانتويل سميث Welfred Cantwell Smith مدرس التاريخ الاسلامى بجامعة عليجرة

واهم مالاحظه أن دعاة التجديد يهتمون باثبات « قابلية الاسلام » للتحضير والتمدين ، ويشيدون بفضله على حضارة الغرب من عهد دخوله الاندلس الى عهد الحروب الصليبية ، وأن بعض المجتهدين — وسمى منهم أبا العلاء المودودى — يؤمنون بأن الاسلام نظام الكون ، وان العالم العلوى يمشى على نظامه فيصح أن يقال عن الشمس والقمر والكواكب أنها كائنات مسلمة ، بل يصح أن يقال عن تكوين الملحد نفسه انه فى « كيانه الجسدى » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمة أحكام الاسلام

وينزع الاستاذ سميث الى التفسيرات الاقتصادية فى عقائد الطبقات ، فيقول أن « الشخصية النبوية » هى مدار العقيدة حيث يلتمس المسلم فى العصر الحاضر « مثلا أعلى » لمسلكه وأدبه وقواعد خلقه ، وان المساس بالنبى عليه السلام يثير المسلم أشد من ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يقصد بذلك

أن مقام النبوة أعظم عنده من مقام الاله فهذا ممتنع كل الامتناع فى الاسلام ، ولكنه قد تعود أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الاله ولم يتعود أن يواجهه أحد بالقدح فى نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه ، وهذه الحركة الواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السيرة » وأصبح قوامها الاعجاب والاقتداء بسيرة النبى فى حياته الخاصة والعامة ، وهنا يستطرد الاستاذ الى تعليلاته الاقتصادية فيقول ان الطبقة الوسطى فى جميع الامم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ، ومن ثم أتجه الشعور الدينى عند المتعلمين ــ ومعظمهم من الطبقة الوسطى ــ الى « شخصية » تملك اعجابهم وتقنع المتدين بجدارتها للقدوة والامانة فكانت « الشخصية المحمدية » هى مدار هذا الشعور وقبلة هذا التفكير

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء الغربية عن الاسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج الى اسهاب فى التعقيب عليه ، لان الاهتمام بذوات الاولياء والقديسين يشيع فى كل أمة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين الميسورين المتوسطين ممن يسميهم أصحاب التفسير الاقتصادى بالبرجوازيين . ونرى أن تعظيم النبى عام بين المسلمين فى هذا العصر ، وأن كتابة السيرة المحمدية عامة كذلك بينهم فى كل أمة . فلا عجب أن تعم البلاد التى كان للشخصية الانسانية فيها مكانة بارزة فى كل عقيدة من أقدم العصور ، وهذا عدا ماهو مأثور عن طبيعة الانسان اذ تدرك القداسة متمثلة فى صورة واضحة قبل أن تتمثلها فى عالم التجريد

□

وبين أحدث الكتب عن الاسلام كتاب الاستاذ تريتون Tritton أستاذ الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن

وقد اختار للمسلم المعاصر مثالين : أحدهما هندى وهو الشاعر الصوفى محمد اقبال ، والآخر مصرى وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهو يحاول أن ينفذ الى طبيعة ادراك الماضى والحاضر والقديم والجديد فى ذهن اقبال فيقول أن الزمن المطلق عنده كل عضوى شامل لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل فى حاضرنا . ثم يقول ان الاسلام يعطى كلا من العالمين - الدنيا والآخرة - حقهما ، وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى ، وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لان باب الاجتهاد مفتوح لايزال.

قال : وقد أدى ضغط الآراء الغربية الى تغيير واجد فى التفكير الاسلامى ، فان المسلمين فى القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد التفكير الاخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجوه الاعتراض التى تأتى من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى ارفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم ليست على مايحبون وأن الاصلاح ضرورة لا محيص عنها ولكنهم يصرون على أن الاسلام دون غيره هو الذى يصلح لمطالب النوع الانسانى ، فقد تغيرت الاحوال ووجب أن تتغير معها النظرة الى الديانة . وقد كان أثر الغزالى فى الشيخ محمد عبده قويا يبدو واضحا فى فهم الدين على أنه عقيدة باطنة حيوية من شئون السريرة ، وأن الشعائر الخارجية ثانوية مضافة اليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم تلاميذ الشيخ تنقاد لمذهب الحنابلة فتجمعت من ذلك دعوة الى رفض البدع المستحدثة والعود الى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت هذه الدعوة برامج اصلاح فى الشئون الدينية والاجتماعية والاقتصادية تثبت قابلية الاسلام للتدين به فى الاحوال الحاضرة ... وهؤلاء التلاميذ يتجهون الى أهداف

مختلفة بعضها وطني قومي وبعضها مدرسى ينظر الى الحرية العقلية ، وبعضها يقدم الاصلاح الدينى ويعتبره مبدأ لكل اصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للنزعة الحنبلية محافظا فى بعض الامور أشد من المحافظين ، وتنصل الصبغة الغزالية عن حياتهم ... وانهم ليعتقدون أنهم معتدلون يتوسطون بين البساطة التى ترجع بقوتها كلها الى التسليم الاعمى فى طوائف الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يجنحون الى الحرية العقلية المطلقة والاتجاه الى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث والشريعة الوضعية ، ويؤكدون أن الاسلام اذا فسر كما يفسرونه يتكفل بالحل الوحيد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين .. »

وانتقل تريتون الى مسألة الخلافة فقال : « ان الغاء الترك للخلافة صدم العالم الاسلامى وان كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد أسما على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ، ومنهم من يؤثر ايجاد الخلافة بأية صبغة روحية خادمة للشريعة لا حاكمة مسيطرة عليه ، وانما وظيفته أن يراقب القيام بحكم الشرع ولا يستطاع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى الى ان يكون كالامام عند الشيعة ، الا انه لم توجد قط ولا توجد الآن اداة معترف بها تتولى اختياره ، وأقرب مايكون الى هذه الاداة فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لايعينون بل يرتقون الى مكانتهم بالمعرفة ووجاهة الشخصية كأنهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة . ويعتبر الوطنيون الذين يعتقدون أن خلاص الاسلام مرهون باقامة الحكومات المستقلة أناسا من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة قد وجدت قديما دون أن تفصم وحدة الجماعة وليس ما يمنع ان يعود الامر كما بدا ويومئذ يصدق على عالم

السياسة ما روى عن النبى حيث يقول : « ان الاختلاف بين أمتى رحمة »

« ... وربما تأثر المسلمون باجلال النصارى للمسيح فرفعوا مقام النبى الى أوج المثل الاعلى وجعلوا الدين محاكاة له فى سيرته ، ولم تزل نظرة المسلمين الى نبى الاسلام تتنوع من حقبة الى أخرى . ولكن النبى نفسه كان يقول انه انما هو رسول وانسان من البشر وليس فى يديه أن يصنع المعجزات »

وختم تريتون هذا الفصل قائلا ان الفجوة بين مدرسة التجديد ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التى دعا اليها محمد اقبال ، وكلتاهما مع هذا قد تثوب الى القرآن الذى يوحى الى المدرستين أن الله ليس كمثله شىء وأنه أقرب اليهم من حبل الوريد

□

واشترك نحو عشرة من الباحثين الغربيين والشرقيين فى دراسات متفرقة عن الثقافة والمجتمع فى أمم الشرق الادنى Near Eastern Culture and Society فقال أحدهم الاستاذ عبد الخالق عدنان اديوار — وهو تركى — ان حركة التجديد العصرية بدأت بدعوة ضيا شوق آلب المسماة بحركة « ينى مجموعة » أو الجماعة الجديدة ، وغايتها أن تنشىء فى الاسلام توفيقا كالتوفيق بين المسيحية والحضارة العصرية على مبادىء اللوثرية ، ولكن غلطة شوق آلب كانت على الاغلب غلطة لغوية فى الترجمة ، اذ كان من سوء حظه أنه ترجم كلمة الدنيوى أو العلمانى Laic باللادينى فنفر المحافظون من مذهبه على اعتباره زندقة مناقضة للدين ، فى حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل تعنى « غير الكهنوتية » .. ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها المسلمون لانهم يسلمون أن ديانتهم خلو من

سلطان الكهنوت ، ثم جاء الاندفاع فى سبيل « التغرب » فبلغ من سورته حدا أخرجه من الدعوة الفكرية الى حالة تشبه الحتمية الحكومية فى سـبيل « اللادينية » وانقلبت الآية من تعصب قديم الى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص وحرية المناقشة

ولخص حبيب أمين الكورانى حركات التجديد فى ثلاث دعوات كبرى هى دعوة جمال الدين المنادى بالجامعة الاسلامية على أساس التقريب بين الاسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة الى السلف الاول ودعوة الشيخ محمد عبده على أساس العمل بمقتضيات العصر كما يسوغها التفسير الحديث لأحكام الاسلام

وتكلم كويلر يونج Cuyler Young عن ثورة السخط فى ايران على المادية والاباحية وعزاهما الى سوء المعيشة الدنيوية لا الى سوء العقيدة الدينية ، وقال ان تحسين المعيشة ونشر التعليم خير علاج للمشكلة النفسية مع تذليل صعوبة اللغة المختلفة بين الاقاليم

ومن الكتب التى درست الاسلام دراسة علمية على اتصال بمساعى المبشرين كتاب قنطرة الى الاسلام Bridge to Islam لصاحبه اريخ بتمان Erich Bethmann وكتاب طوالع الاسلام The Prospects of Islam لصاحبه لورنس براون Laurence Browne

أما الاول فيصرح باخفاق التبشير وينعى على الحضـارة الغربية انها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشتد فى نقـد الروايات السيمية لانها أدخلت فى روع المسلم الشرقى أنهـا تمثل حياة الامم المسيحية فنظروا اليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا اليها نظرة طالب الاصلاح

وكأنما خشى من أنصار التبشير اعراضا عن المعونة فلام الذين ينصحون بالتحبب الى الشرق من طريق التعليم والاحسان

والتطبيب ، وقال ان الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الثيولوجى » فهو لا يفهم الاصلاح على غير هذه القاعدة ومالم يكن هنالك حافز دينى فالامر عنده من الشواغل العرضية التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل . . . وانه لرأى فى الحق جد عجيب ، لانه الرأى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع أنصار التبشير بضياع المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما أشتمل عليه

وأما لورنس براون فمحاولته كلها متجهة الى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين » ، وهو لاينكر أن المسلمين الذين يصبأون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى ان المسألة هنا مسألة الطبقة لا مسألة العقيدة ، وان أبناء الطبقات الميسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع الملل والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطمع فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات . ولكن المطمع كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، وكما ظهر فى رأيه بين المتنصرين الهنود الذين يرجح انتماؤهم فى الاصل الى اجداد كانوا يدينون بنحلة من نحل الاسلام

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الاسلام والغرب ثم ترجم الى العربية باسم الاسلام فى نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور اسحاق موسى الحسينى من فلسطين

يقول الاستاذ « فيليب حتى » ان الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر فى المسائل الفنية والعلمية ويتعسر فى مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الإقتصادية ، ويقول ان المتفرنجين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم

لا يستطيعون أن يغيروا مافى داخل الراس بمجرد لبس القبعة وخلع الطربوش ، ويختم كلمته قائلا ان الدول العربية ليست جزءا من آسيا ... وعلى الغرب أن يقنع تلك الدول التى ترغب فى توطيد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب الى تلك الثقافة .. اى الى الثقافة الغربية !

ويسهب الدكتور بايرد دودج المدير السابق للجامعة الامريكية فى ايراد الامثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة بين الاسلام والعلم الحديث ، ومن مسائل العلم الحديث التى أشار اليها مسألة التطور والجراثيم ومسائل الاقتصاد التى تتناول المعاملة بالربا وما اليها ، ولكنه يقول ان الناشئة تنبذ فرائض دينها « ويلوح لى ان هوليوود قد أثرت فى الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية »

ثم يقول : « واليوم وقد أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصرا قويا فى الفكر الاسلامى والمجتمع ، وهذا يؤدى بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية أو الخلافة وكون الاسلام أخوة منظمة ـ فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الاسلامية الى حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان المسلمين الذين لايبالون بالاسلام باعتباره نظاما عظيما هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية ... »

وزبدة كل هذه الآراء ، ماكان منها لمحض العلم او ماكان منها منظورا فيه الى التبشير والسياسة ، أن الغربى مشغول بأمر الاسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ماوراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه ، واهم مايهمه أن يعلم كيف يقف الاسلام غدا من مجاميع الامم الغربية والشرقية ، وكيف يكون مسلكه اذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذاك

ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب . نظرة

او نظرات مثلها من جانب المجموعة الاممية التى تسمى بالكتلة الشرقية ، وتدل نظراتها جميعا على تناقض غير مطـرد فى وجهته . فيرحبون حينا بنشاط القوميات لانها تفرق بين المسلمين فى البقاع المتقاربة ويرحبون حينا آخر بنشاط الوحدة الاسلامية لانهم يخشون العصبية القومية ولا ييأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم الاجتماعية

واذا صرفنا النظر عن « اهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى يبعث اليه حب المعرفة وحب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه السياسات وتقرير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمام شامل لجماهير الاقوام غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ، واحدى ظواهر هذا الاهتمام شيوع الطبعات الشعبية من ترجمة القرآن الكريم ، وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجل من رجال الدين وهو يقدم المختارات من آى القرآن أنه اذا لم يكن كتابا فهو صوت قوى حى Strong Living Voice ... وهو غاية ما ينتظر ممن ينكر الكتاب (١)



(١) من مجموعة الكتب المقدسة فى العالم للقس بوكيه !
Sacred Books of the World by Bouquet.

آسيا وأفريقا

وكل بحث فى مستقبل المسلمين يستتبع البحث فى مستقبل القارتين آسيا وافريقية على الخصوص ، لان تسعة أعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين ، وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير

وجملة مايقال فى آسيا ان شعوبها أضخم من أن تبتلع فى بنية شعب آخر ، وجملة مايقال فى افريقية أنها أبعد أصلا من أن تندمج فى الغرب وهى قائمة على تربتها

انما ينظر فى هذه وتلك الى عاقبة السيطرة الثقافية ؛ ولانعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فان الامم التى تتقدم فى العلم الحديث لا تقع تحت سيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تتغلب بعلمها على السيطرة الاجنبية ان كانت واقعة فى قبضتها

وانما نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العقيدة من جانب المذاهب الاجتماعية أو من جانب التبشير

ان الدول الكبرى التى تتجاذب سياسة العالم هى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وروسيا الشيوعية

والظاهر ان سياسة بريطانيا فى القرن العشرين ان تتراجع عن آسيا ، وعن الشرق الاقصى خاصة ، وتترك ميدان السباق فيه للروس والامريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث فى آسيا الغربية ، أى فى بلاد العرب التى تمتد من العراق الى البحرين الابيض والاحمر

أما السيطرة الروسية فهى تقوم على نشر الشيوعية . وهى مذهب لايوافق الاسلام فى أساسه ولكن الاسلام يغنى عنه اذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والانصاف وعملوا بأصول دينهم فى التوسط بين التهالك على الدنيا والاعراض عنها ، وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هى قطعة من أوربا أخذتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحـــدث فى المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للاسلام شأن كبير فى هذا التكرار

وتتسابق الدولتان الروسية والامريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام فى هذه القارة الواسعة ، ومآل كل ذلك حتما الى أبناء البلاد لان حبل الزمن اطول من حبل المال وحبال السياسة ، وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الامة وقوامها ، وليس فى آسيا قوة روحية أقدر من الاسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التى تؤمن بدينه

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة ، وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكرى فى حالة الحرب العالمية ، ولكنها لا تهمـل حساب التبشير ولا تنسكر مسعاه فى حمايتها ، وهذه عبارة فى سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير

يقول هارولد ستورم فى كتابه الى أين ياجزيرة العرب(١) :

« ان قبائل الجبال وراء ظفار ــ وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة ــ تستخدم لهجات غير عربية كالشحرية والمهرية والبوطهارية والخرسوسية ، وكل لهجة من هذه اللهجـات لا يفهمها المتكلمون باللهجات الاخرى ، وقد تمكن العالم اللغوى

---

(١) Whither Arabia, by Harold Storm
من سلسلة «World Dominion survey series»

الالمانى الدكتور مكسمليان بثنر Bethner من رسم اللهجتين الشحرية والمهرية بالكتابة وهما على مايلوح لى على قرابة من احدى اللغات الهندية حيث تدل بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند الى ظفار ولا تزال ثمة عادات قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطررت الى استخدام مترجم بين هذه القبائل حين عشت فى بلادها ، وتبين لى من صعوبة اللغة أن العمل بينها – أى عمل التبشير – عسير

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لامحالة رجوعا الى العمل الذى تأسس فى مسقط نفسها ، ويدعو موقف السلطان الودى فى الوقت الحاضر الى الامل فى الانتفاع بهذه الفرصة لانجاز شيء . اذ تتنقل بعثات التبشير بغير عائق فى عمان ويرجى من تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك فى داخل عمان قبائل لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط فى حمل رسالة الانجيل اليها على نطاق أوسع مما تيسر قبل الآن فى أى مكان »

أما القارة الافريقية فقد أحيطت كذلك بحلقات من الجهات الاربع تسيطر عليها الدولة البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة عن هذه القارة أن تجمع على اعتبارها فى عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » ببريطانيا العظمى ، واحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى فى عنوانه وهو « افريقية امبراطورية بريطانيا الثالثة «Africa, Britain's third Empire» من تأليف جورج بادمور Padmore

وقد ظهر باللغة الانجليزية فى السنوات الاخيرة أكثر من مائة كتاب عن القارة الافريقية ، وبعض عناوينها ينم على مبلغ الامل والحذر من هذه الجهة التى أحاط بها الظلام الى أوائل القرن العشرين

من عناوين هذه الكتب عنوان « الامل فى افريقية » لمؤلفه آلبورت ، وعنوان « افريقية الغربية الجديدة » لاربعة مؤلفين ، وعنوان « الافريقى اليوم وغدا » لمؤلفه ديديرنج وسترمان ، وعنوان « قضية الحرية الافريقية » لمؤلفه جويس كارى ، وعنوان « افريقية تنهض » لمؤلفه . و . م . مكميلان ، وعنوان « قارة الغد » لمؤلفه بطرس بن ولوسى ستريث .. وهكذا وهكذا عشرات من التصانيف الجديدة تتلوها عشرات

ومامن كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الاسلام والتحدث عن سهولة انتشاره بين الشعوب الافريقية ، ونجتزىء بنماذج من هذه الاشارات للدلالة على السياسة التى قد توحيها معلومات القوم عن اثر هذا الدين فى مستقبل الافريقيين

يصف وسترمان دين الاسلام وصفا غريبا يعلل به قابلية الشعوب الفطرية للاصغاء الى دعوته ، فيقول عنه انه دين مذكر او دين ذو رجولة Masculine يعجب الافريقى ببساطته وقوته ، ثم يقول « ان المسلم لايهبط الى مثل هذا الاقتداء الخاضع الذى يهبط اليه الزنجى الوثنى ، فبينما يفخر الزنجى الوثنى اذا اتيح له أن يلف نفسه بخرقة عتيقة يلقيها الاوربى اليه ويعرض نفسه للسخرية بهذه القدوة الهزلية ـ لايخطر على بال المسلم أن يستبدل ملابس الاوربيين بردائه الفضفاض وقلنسوته السعفية »

ويضيف الى ذلك أن الاسلام متى بدأ فى مكان لم ينتظر مددا من الخارج للتوسع فى جوار ذلك المكان ، فمعظم التبشير به افريقى لايحتاج الى معونة من غير الافريقيين

وقد ألف الاستاذ نادل Nadel النمسوى أستاذ علم الاجناس البشرية بجامعة النمسا الوطنية ـ كتابا مفصلا عن عقيدة النيوب فى بلاد النيجر وأثر الاسلام فيها قال فيه : « ان الاسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الاتباع ولا

يدعهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الايمان التام ولايكتفى بعلامات الموافقة والمجاراة »

ويقول البروفسور مكميلان فى كتابه « أفريقية تنهض » Africa Emergent « ان الجانب الاسلامى فى بلاد النيجر قد أنمى فيه مايحسب الآن ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ، وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمة قد يكون القليل منها اليوم هو الحقيق بأن ينسى »

وبديه أن كل اعتراف من هذه الاعترافات يستتبع وراءه خطة الحذر والحيطة للمستقبل ، ولكن المستقبل سيكشف للافريقيين ولاريب حيلته فى مقاومة هذه الخطط أو محاذرتها واتقائها من جانبه

اما الامل الذى يتخايل أمام المستعمر البريطانى فى هذه القارة فهو تأليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل مجموعة منها مع المجاميع الاخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح صاحبا كتاب « قارة الغد » برامج هذه الولايات . وقالا ان مصلحة الاوربى والافريقى فيها لاتتعارضان ولا تتناقضان بل تتوازيان ، وان افريقية اما أن تحكم على هذا المثال أو تصير فى نصفها الجنوبى على الاقل وطنا مدمجا فى الشعوب الشرقية التى تهاجر اليها وأكثرها من الهنود ، وقد تطمع الشيوعية فى استخلاصها لها من مصير كهذا أو مصير كذاك

ويوشك الراى الغالب على هذه المصنفات أن يتجه الى غاية واحدة : وهى ادخار افريقية لتزويد الامم الغربية بمواد الغذاء وخامات الصناعة ، مع بعض الرجاء فى العثور على المعادن والزيوت فى باطن ارضها ، حيث يتيسر تصنيعها الى جانب مناجمها

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له أن ينظر بعينيه جميعا مفتوحتين الى الغد الذى لا مهرب منه فى قارة « الغد »

كما يسمونها . فمهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو التبشير فلن تكون افريقية فى النهاية لغير الافريقيين ، ومن داخلها سيخرج لهم من ينتزع سيادتها من أيديهم ، ومن يناصبهم العداء لانهم قد استأثروا دونه زمنا بهذه السيادة ، ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه



لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثيل التى تعاد ولا تمل امثولة للكاتب الروسى (ديستيفسكى) عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش فى قصة الاخوة كرامزوف

وخلاصة الامثولة أن السيد المسيح عاد الى الارض واخذ فى وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم واوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء فيك

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضى فى حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله فى أحاديث المصلحين والمفسدين

ولم يبالغ الكاتب العظيم فى تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان ماتخيله بعيدا أو غريبا فى بابه ، ولكنه فى الواقع أقرب شىء الى الاحتمال مع هذه البشرية التى تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية فى وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها وألعوبة فى أيدى العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه

وينتحلون هدايته

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام ، والاسلام برىء منهم ، وكل ماهنالك من خلاف أن المسألة لاتمر بتلك السهولة التى توهمها رئيس محكمة التفتيش او من يتصدى فى الاسلام لمثل عمله ، وانه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير

وأسأل نفسى كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبى عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وماهى المسائل التى يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسى فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيها الى شخصه الكريم ويغنى جوابه فيها كل الغناء فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد فى هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الاحاديث النبوية ،ومسألة الروايات فى قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبى الاسلام فيها

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور فى جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من اقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون

وبعد كل هذا الجهد المشكور لاتزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة فى الكتب وعلى الالسنة

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهى القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب فى التضليل وترويج الاباطيل

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث فى أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التى لم يتفق عليها القراء لاتغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر فى ذلك ولا ضرار

الا أنها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبى الذى تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته — فى عصر التسجيل — فتلك ذخيرة الابد فى ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون فى مجالس الذكر الحكيم

الخلافة والملك

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة

تلك المعضلة التى سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره فى الاسلام حين نذكر السنة والشيعة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين

بم أوصيت يارسول الله فى أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية ام دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أم على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هى بيضاء من غير سوء ، واذا هى بقية من بقايا الماضى تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا فى مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع فى هذه المسألة واحد فى كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هى النهاية الفاصلة ، وقد تمنع فى المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها فى الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد !

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يارسول الله فى دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديمقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة فى كل دين

وانما يسأل النبى عليه السلام فى الاشتراكية فيقول ماقاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشـــباه الصحفيين

ويسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب

ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان فى الاقناع

ان كاتب هذه السطور قد راى بعينيه أناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رائعة النهار

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر فى « اثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين »

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابرك المكابرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وأن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام

فاذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفى ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج فى العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الاولين والآخرين ، فما هو الا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لايهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين !!

التراث الاسلامى

ووسائل احيائه فى هذا العصر

احياء التراث الاسلامى لابد له من عملين متلازمين يتوقف أحدهما على الآخر

أحدهما نشر الكتب والآثار الاسلامية فى جميع الاقطار التى تقرأ لغة العرب

والثانى ايجاد الرغبة فى قراءة هذه الكتب والاحاطة بهذه الآثار ، أو تنشيط هذه الرغبة اذا كانت موجودة على حالة من الضعف والفتور ، اذ لايكفى نشر الكتب والآثار لاحياء التراث الاسلامى اذا نحن نشرناها بين أناس لا يحفلونها ولا يقبلون عليها ولا يشعرون بالحاجة الى دراستها والالمام بها

وكثيرا ماتكون طريقة النشر سببا من أسباب الترغيب فى القراءة والتنشيط اليها ، وكثيرا ماتكون الرغبة فى القراءة والنشاط اليها سببا من أسباب العناية بالنشر والتوفر على وسائله المثلى . ومن ثم نقول أن احياء التراث الاسلامى يحتاج الى عملين متلازمين ، وأن كل عمل من هذين العملين يتوقف على الآخر

وعندنا ان الوسيلة المثلى لايجاد الرغبة فى احياء التراث الاسلامى هى مزجه بالحياة الحاضرة وتحويله الى مجراها ، فلا يشارفه الانسان كما يشارف متحفا قديما للآثار المحفوظة بل يشارفه كما يدخل فى معترك الحياة وينغمس فى تيار الشعور

والعاطفة وليس ذلك بعسير اذا حسنت المطالعة وحسن الاختيار وحسن التنبيه

□

فالتراث الاسلامى عامر بسير العظماء والابطال ، وكل واحد من هؤلاء العظماء والابطال له حياة ، وله أشواق ، وله هموم، وله وثبات بين الرجاء وبين النجاح والاخفاق ، ونعيد هذه الحقيقة بعبارة أخرى فنقول ان كل عظيم من عظماء الامم الاسلامية وكل بطل من أبطالها صالح لان يصبح مدار قصة أو حادثة كهذه القصص أو كهذه الحوادث التى نقرؤها ونشاهدها فتهز نفوسنا وتنطبع فى خواطرنا وتصبح حية بحياتنا عصرية بانتقالها الى عصرنا ومشابهتها الوقائع والاحداث التى تجرى بيننا

التراث الاسلامى عامر بالحركات الاجتماعية التى تحتاج منا الى فهم جديد وتفسير جديد ، فاذا أستخرجنا هذه الحركات الاجتماعية وعرضناها وفسرناها على الوجه الأمثل ، فسنرى يومئذ أنها حركات حية تشبه كل الشبه مانراه بأعيننا أو مانقرؤه فى الانباء البرقية والصحف السيارة ، وسنرى يومئذ أن عالم التاريخ الماضى وعالم الحياة الحاضرة يلتقيان اقرب التقاء، ويتعاونان فى افهامنا حقيقة الماضى والحاضر على السواء ، فرب مسألة عصرية لا نفهمها حق فهمها الا اذا قارناها بمسألة مثلها فى العهود الغابرة ، ورب مسألة غابرة لانفهمها حق فهمها الا اذا ضاهينا بين أسباب اليوم وأسباب الامس ، ورجعنا الى البواعث المشتركة بين ماكان وبين ماهو كائن ، فنحس ونحن نقرأ أننا لانتنقل الى عالم التاريخ الدابر بل ننقل التاريخ الدابر الى عالمنا الذى نعيش فيه ونضطرب بالرجاء والكفاح فى نواحيه

والتراث الاسلامى عامر بالفكاهات والنوادر والاحاديث التى لا زمان لها لانها انسانية تصلح لكل زمان ولا تختلف باختلاف

البلدان والاطوار ، فاذا بحثنا عنها وجمعناها وجدنا أنها صالحة لوقتنا كما كانت صالحة لاوقاتها التى جرت فيها ، لان الطبيعة الانسانية فى أساسها قلما يطرأ عليها التغير فى عناصر الفكاهة والعبرة ومقاييس الفطنة والبلاغة ، فالنادرة البارعة والجواب السريع والفكاهة الحسنة والكلمة النافذة هى بنت كل زمان يعيش فيه الانسان ، وليس بالمتغير عليها مع تغير التواريخ الا طريقة العرض والتناول دون المعدن الاصيل

والتراث الاسلامى عامر بالشعر « الغنائى » والمقطوعات الباهرة والشواهد السيارة ، ومنها مالبس يحتاج الى غير النقل والتعليق اليسير ليلقى نصيبه من الرواج والاعجاب ، ومنها مايحتاج الى تعليق يجعل الفائدة منه فائدتين والرغبة فيه رغبتين ، يقرؤه القارىء ليستوعب محاسنه فهـــذه فائدة ، ويقرؤه ليدرك الفرق بينه وبين مايقابله من آداب الامم الاخرى أو من آداب العـرب فى العصر الحاضر فهـذه فائدة أخرى

وهذه عندنا هى وسائل « احياء التراث الاسلامى » أى نقله الى عالم حياتنا وتحويله الى مجرى زماننا ، وتمثيله للقراء كى يشارفوه كما يشارفون الدنيـا الحية لا كما يشـارفون المتاحف المزوية . فهو يحيا بنا ونحن نحيا به فى آن

◘

من الذى يقوم بهذا الواجب ؟ ؟

جماعات أو أفراد لا يستغنون عن جهد الجماعات ، وسنبين لحضرات القراء فيما يلى أن الادب العربى خاصة ــ سواء أكان قديما أم حديثا ــ أحوج الآداب الى جهود الجماعات التى لاتغنى فيها أعمال الافراد المتفرقين

فعلى الحكومات قبل كل شىء أن تقبل فى بلادها المختلفة على

احياء ماعندها من المخطوطات المتروكة أو المطبوعات الكاسدة ، وعليها أن تربط بين هذا العمل وبين قوانين الانتاج الناجح فى سوق الاعمال الاقتصادية ، فلا تلقى به الى موظفين مطمئنين الى مرتب مضمون كيفما كان مصير عملهم من النجاح أو الخيبة ، بل تنوط به اناسا يعنيهم رواجه وكساده ويهتمون به اهتمام الزارع بمحصوله والتاجر بكسبه ، وتجعله مقرونا إلى بعض الشركات على نحو تشترك فيه الغيرة على الادب والغيرة على الرواج

وهناك أقسام كثيرة لاحياء التراث الاسلامى غير مجرد الطبع والاذاعة ، فمن الكتب ما يطبع كما كتبه مؤلفوه ، ومنها مايختار منه الاصلح والادنى الى التشويق ، ومنها ما يشفع بالتعليق أو التفسير ، ومنها ــ وهو أصعب الاقسام جميعا ــ ما يحتاج الى المقارنات بينه وبين نظائره فى الامم الاخرى ، والى الملاحظات عن البواعث والاسرار التى لا يقتصر العلم بها على العلم بالشئون الاسلامية

وعلى الحكومات الى جانب هذا أن تهتم باقامة المؤتمرات والمحافل فى مناسباتها المتجددة ، كذكرى الادباء والعلماء والعظماء ، وافتتاح المعاهد التى تعنى جميع الناطقين باللغة العربية ، وتكريم النابهين وتبادل الزيارات ، وما الى ذلك من المناسبات التى تلفت الانظار وتجذب الاسماع وتخلق بواعث الرغبة فى الاطلاع

وقد أسلفنا أن الادب العربى أحوج الآداب الى جهود الجماعات لان اللغة العربية موزعة بين أقطار عدة وحكومات شتى على خلاف اللغات الاخرى التى تشتمل كل منها على أمة واحدة أو أمتين كبيرتين تستغنى احداهما عن الاخرى

فالكتاب الانجليزى له ــ على سبيل التمثيل ــ مائة الف

قارىء يتبعون حكومة واحدة ويتعاملون بنظام واحد ويتبادلون الاخذ والعطاء فى ظل دولة واحدة ، ويكفى أن يطبع الكتاب فى لندن أو فى نيويورك ليعتمد على قرائه فى أنحاء الدولة البريطانية او فى أنحاء الولايات المتحدة بغير حاجة الى أمة خارجة عن هذا النطاق

اما الكتاب الذى يطبع فى القاهرة فلابد له من طابع قادر على معاملة أناس متفرقين فى عشرة أقطار ، وحكومات بينها من الاختلاف مثل مابين مراكش والعراق أو مابين سورية والسودان أو مابين طرابلس وحضرموت ، واين هو القلب الواحد الذى يحرك الدم فى جميع هذه الشرايين من أدناها الى أقصاها ان لم يكن قلبا كبيرا يتجاوز طاقة الفرد الواحد الى طاقة الجماعة القوية بالمال والنفوذ ؟

بل خذ مصر وحدها تعلم أن الجهود الثقافية فيها تكاد تنحصر فى القاهرة ولا تتعداها الى سائر المدن الموزعة بين الاقاليم ، فالاسكندرية خلو من مكتبة عربية كبيرة ، ودع عنك طنطا والمنصورة وأسيوط وأسوان ، ويرجع هذا الى قيام الافراد بالطبع والنشر دون الشركات الواسعة النطاق ، فان الشركة تستطيع أن تسير الباعة فى الاقاليم مرة كل أسبوع أو مرة كل شهر لتوزيع الالوف المطلوبة من الكتب هناك ، ولكن الفرد الواحد لا يستطيع أن يدير مكتبة فى البلدة الصغيرة من أجل عشرين نسخة من كل كتاب جديد لايدرى متى يكون صدوره ولا من يتولى اصداره وهل هو صاحب المكتبة التى يعاملها او هو صاحب مكتبة غيرها ، وقس على ماتقدم سائر المصاعب والعراقيل

وخلاصة الرأى أن احياء التراث الاسلامى انما يتأتى بأعمال ثلاثة هى (١) اظهار ذلك التراث ، (٢) تنشيط الرغبة فيه بتحويله الى مجرى الحياة الحاضرة وتقريبه من شواغل الاذهان

والنفوس فى الزمن الحديث ، (٣) تنظيم النشر والتوزيع على ايدى جماعات قوية يتسنى لها ماليس يتســـنى للافراد من توحيد المعاملة وتوسيعها بين الجهات المتنائية والحكومات المتباينة وسيكون هذا العمل العظيم مفيدا للقائمين به ولابناء الامم العربية كافة ، أيا كان معنى الفائدة الذى نتوخاه



الغد

والغد غيب مجهول !!

ولا حاجة بنا الى التنجيم عن حوادثه وصروفه ، فانه بأية حال لن يخلو من الحوادث والصروف ولن تخلو حوادثه وصروفه من سلم وحرب ونصر وهزيمة ودول تعلو ودول تهبط وعلاقات تتصل وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب الى عداوة وعداوة تنقلب الى صداقة ، وتكرار على نسق الماضى وبدع جديد كأنه من الماضى المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديد .

انما نحن آمنون اذا واجهنا الغد المجهول بعدته ، وانما نحن مستعدون له بخير مانستطيع اذا خرجنا من الماضى الطويل بعبرته الوافية ، وعبرته الوافية أن العقائد اثبت من السياسات وأن الامم أثبت من الدول ، وأن الجاهل اعدى لامته من اعدى اعدائها ، وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار كما نكب من ابنائه الجهلاء

ولا نرجع الى الف سنة مضت منذ ابتدأت الحروب الصليبية لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة

كفى أن نرجع الى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات . فقد كانت فى أوله دول يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من بقاع المشرق أقصاه وادناه ، وكانت فيه دول

تمتزل العالم القديم وتطلب من العـالم القديم أن يعتزلها ، فتغيرت المواقف وتغيرت السياسات وتغيرت الدول وتغيرت العلاقات ، وقاتل الناس فى صـفوف ثم قاتلوا فى غير تلك الصفوف ، ولم تتغير معالم الارض ولكن تغيرت الحدود وتغيرت الدول التى تقوم بين تلك المعالم والحدود

فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها

ومهما تكن الدولة فالأمة هى الباقية

ومهما يكن الخطر فالجهل فى كل معترك ومع كل خصم أو منازع هو أخطر الاخطار

واذا بقى للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ، وأخطر من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء

ومثل من أمثلة الجهل والغباء أن يطول اللجـاج ويحتدم الهياج على التحريم والتحليل ، ومحصول ذلك كله أهون من خطر اللجاج وخطر الشقاق والهياج

ان الجهل الذى يغرى صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين فى الكهرباء بمحالفة الشيطان لهو أخطر على الاسلام من كل حلال وحرام

ولقد تطول الاقاويل فى حل التماثيل وتحريمها وفيما هو تمثال وليس بصورة أو ماهو صورة وليس بتمثال ، ولكن التماثيل والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت بين أبناء الاديان من المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين ولم نسمع قط أنهم سجدوا لتمثال بطـل عظيم أو تعبدوا لضريح نابغ مشهور ، وليست عقيدة المسلم بأضعف من عقائد الاديان عن مدافعة هذه الاخطار ان خيفت منها الاخطار ، فلا يمتنعن البحث فى الحلال والحرام ولا فى الصحيح والباطل

من عقائد المعتقدين ، ولكنه اذا بذل فيه من الجهد فوق حقه ، واضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الاكبر وذلك هو الجهد العقام ، واحتفاظ المسلم بايمانه أمام هذه المحرمات أيسر جدا من احتفاظه بالايمان أمام جاهل يكفر القائلين بدوران الارض أو تسخير الكهرباء أو الاستماع الى المذياع من غير ذي صوت منظور ، ثم يزعم انه يفتى بحكم الدين فيصـــدقه من يجهل الدين ويكفر بالدين من يحمل عليه جريرة فتواه

ولا خطر على المسلمين أوبل من هذا الخطر ، فاذا اتقوه وعاذوا بالايمان على علم وبصيرة فلا خطر عليهم من الدول والسياسات ، ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار

ولا ينسين المسلمون أنهم مجموعة من الامم فى عصر المجموعات وان لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين

لا ينسين المسلمون أنهم مجموعة من أمم العالم فان العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذاكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بازائها

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، أو هكذا تتمثل لنا المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن مع التقارب بينها فى مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء أرادها أصحابها أو لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم الا اذا أريدت لغرض مقصود ، وغالبا مايكون هذا الغرض وحدة فى الحكم أو فى السياسة أو فى مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة

والاسلام شاء أو لم يشأ مجموعة بين مجاميع الامم الكبرى فى القرن العشرين ، وليست مجاميع الامم مقصورة على الكتلة الشرقية التى يتزعمها الروس أو الكتلة الغربية التى يتزعمها الامريكيون والانجليز ، ولكنها أكثر من ذلك وأحق أن تعرف جميعا أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه

فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معا تتخللهما مجموعة

واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف المجاميع فى هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين

ان الكتلة الغربية يقودها انجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها اناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى . ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء اتباعها من أمم العالم على حدة فى الشئون الروحية ، ومن هنا أيضا تظهر فى أمريكا الجنوبية وفى أوربا الوسطى وأوربا الغربية برامج فى السياسة لاتنضوى كل الانضواء الى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال

ومجموعة الامم الاسلامية مقصودة ، ولابد أن تقصد ، بخطة واحدة فى بعض الاحوال

فاذا غفلت عن هذا الامر الواقع أصابها مايصيب كل غافل عن الامر الواقع ، ولكنها لاتتنبه له بداهة لتجتمع على عدوان فى الاستغلال أو على عدوان فى التبشير ، وانما تتنبه له لتدفع العدوان من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتا مسموعا فى كل سياسة تصاب بها على سوء النية أو حسنها ، وتربأ بنفسها أن تكون بحيث كانت تيم فى رأى الشاعر :

ويقضى الامر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

ومتى استطاعت هذه المجموعة العالمية أن تسهم فى أمانة « الانسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن تؤدى رسالتها للحضارة والسلام وأن تفرض وجودها على من يهملونها ولا يحسبون حسابها فذلك حق الاسلام منها ، وحقها هى من الاسلام

وامامها على الدوام « ايمان على هدى وبصيرة » ولا خذلان لمن يقتدى بهذا الامام !!

الفهرس

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى سلسلة ثقافية كبيرة قامت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ أشعب أمير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل (نفد)

٢٣ ـ مذكرات عرابى
(الجزء الاول) (نفد)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والاخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ـ البؤساء (نفد)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
(نفد)

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جماتى

٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ قادة النيل
تأليف أميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ــ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول) (نفد)
٥٤ ــ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)
٥٦ ــ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
٥٧ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)
٥٨ ــ معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)
٦٠ ــ اعرف نفسك (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٦١ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)
٦٢ ــ مع الله .. فى السماء (نفد)
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ــ الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)
٦٤ ــ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٦٥ ــ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ــ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ــ عبقرية الامام على (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ــ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ــ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ــ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد
(نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ــ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ــ بناة النهضة العربية
تأليف جرجي زيدان
٧٣ ــ محمد الرسول البشر (نفد)
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ــ القصر المسحور
تأليف طه حسين ــ توفيق الحكيم
٧٥ ــ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٧٦ ــ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ ــ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ــ البؤساء (طبعة جديدة)
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ــ أخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ــ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ــ قصة الوحدة العربية (نفد)
تأليف أنور السادات
٨٢ ــ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ــ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ــ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ــ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ــ سارة
بقلم عباس محمود العقاد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذه السلسلة

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان و الاقليم الشمالى : وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

البرازيل :
Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا :
Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجيريا :
Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغافورة
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

هذا الكتاب

كتاب ضخم ، لا فى حجمه ، بل فى مبناه وفيما اشتمل عليه من بحوث هامة رائعة عن الاسلام ، وعن قوته الغالبة منذ بداية عهده وعن قوته الصامدة حين ضعفت أممه بعد ذلك بعدة قرون ، وكيف انتشرت هذه العقيدة الشاملة شرقا وغربا ، وكيف غزت مختلف الاقطار ، وكيف اعتنقها الملايين • انه كتاب نفيس يحدثنا عن الاسلام والمسلمين • فى مختلف الاجيال ، وفى متباين الاقطار والامصار ثم ينتهى بالقارىء الى الحديث عن الاسلام فى القرن العشرين

والاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، مؤلف هذا الكتاب ، هو بلا مراء خير من يعالج مثل هذا الموضوع ، فقد عهدناه وعهده القراء فى بحوثه العديدة باحثا مدققا ، لا يغفل ناحية من نواحى البحث الذى يعالجه ، وهو حين يحدثنا عن الاسلام انما يتحدث حديث الملم بجميع اطراف الموضوع ، ولهذا كان كتابه تحفة رائعة يهم كل مؤرخ وكل مسلم • وانه ليسر سلسلة كتاب الهلال ان تقدمه للقراء فى مستهل شهر رمضان المبارك •

